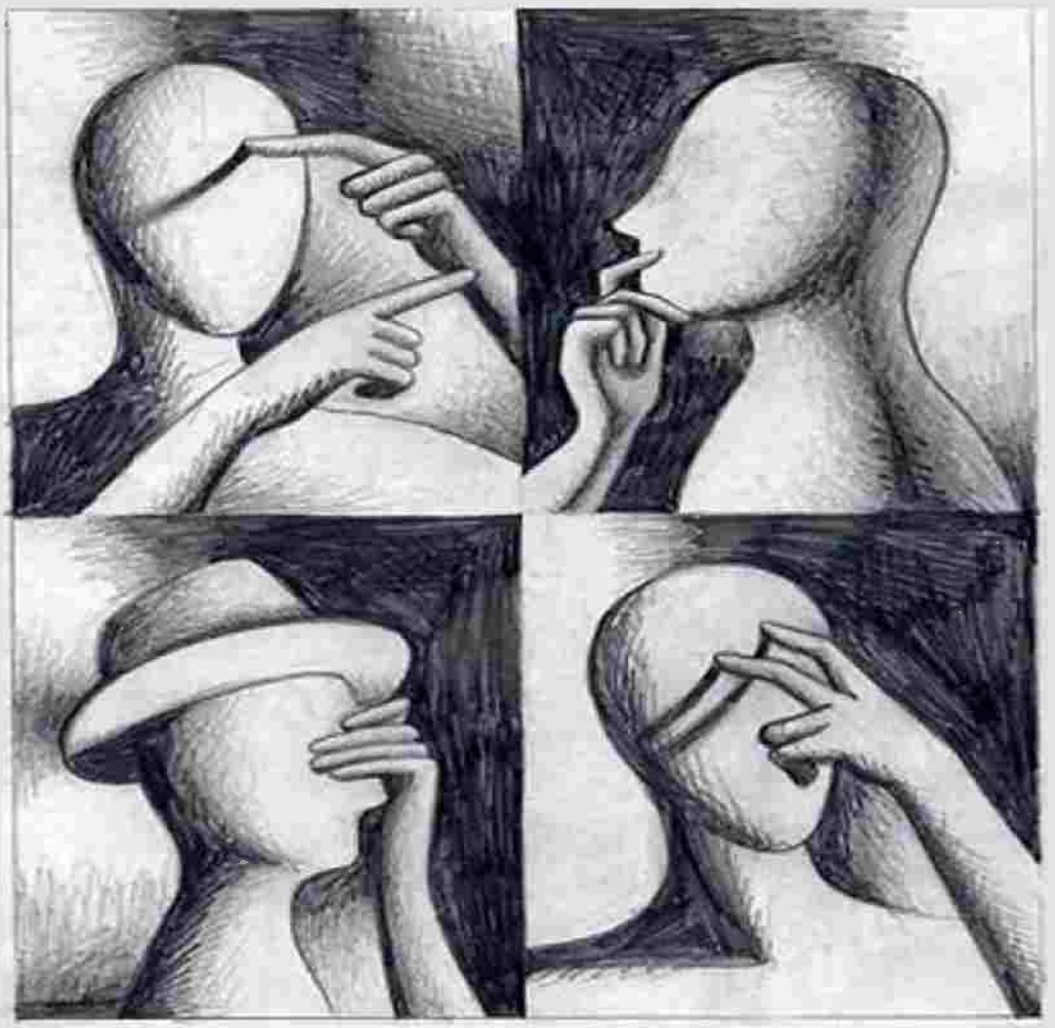

الحائر

تامر محمد عزت

مراجعة لغوية

نهي محمود

إشراف

مي محمود حافظ

الراعي الرسمي

http://www.pensandbooks.com/index.php

الجزء الأول

(مرحلة التكوين)

تمثال يوناني بلا حدقات

٢٠١٣

(أنا وشبحي)

جلست في حجرتي سعيدا بالأجازة التي نلتها،فمنذ وقت طويل جدا لم أحصل علي هذه الأجازة التي قوامها ثلاثون يوما ..فهي إجازة من أجل الزواج ....وبعد أسبوعين سأترك هذه الحجرة لأنتقل بإرادتي إلي الحياة الزوجية

أخيرا تأملت حجرتي ،كبيره وبها كل متطلبات الحياة الحديثة من تلفاز إلي حاسب إلكتروني ومكتبه ،أنا من هواة الكتب التي كانت بمثابة مفاتيح لفكري وعقلي وروحي ..وهي مكتبة تم سرقتها بشكل علني من والدي ..
أعرفكم بنفسي ،اسمي وليد أحمد الشوربجي، تخطيت الخمسة والثلاثون عاما ..تأخرت في الزواج قليلاً..لايهم..كان لابد من التأخير...
أعمل محاسبا لإحدى الشركات الغذائية ، والدي حالياً تخرج من جامعه الوظيفة الحكومية ووالدتي مازالت تعمل موظفة حكومية في السنوات الأخيرة من عُمرها الوظيفي ، لدي أخوَان واحد منهم يصغرني بخمس سنوات والآخر بعشر سنوات

وأثناء شرودي وسرحاني في الماضي والمحاضر والمستقبل
حضر..(الضمير اليقظ وصوت الفكر العالي) ...إنه أشبه بشبح ،من خيالي..أفكر معه كثيرا ..ويشبهني كثيرا...ولكنه أكثر فهماً ووعياً واتزاناً..نفسيا وروحيا.....
ارتسمت علي شفتيه ابتسامه ...وقال:
هل حان وقت الرحيل ..؟؟
أجبت: نعم
هو: ألن تكتب عمّا مررت به من مراحل سقوط وصعود .؟
أنا...لم أنطق
هو: لماذا هذا السكوت اللعين ..؟
أنا: وماذا اكتب أيها الضمير .؟
هو: يالك من أحمق سلبي..أعشرون عاماً من الحيرة لا تستحق منك عناء السرد والكتابة ..والتدوين بل والنشر أيضا ..؟؟
أليس هناك من يقرأ لك ؟؟ أليس هناك من يتابع كتاباتك؟؟...
قاطعته قائلاً: سيدي الضمير صاحب الصوت العال..أنا مجرد محاسب في شركه ..وكل ما اكتبه هو هواية لا أكثر ولا أقل..وليس قصة حياتي بها ما هو يجذب الآخرين ..إنما أنا شاب عادي مرّ بمرحله عاديه من مرحلة الشك واليقين والبحث عن الذات والبحث عن اليقين الديني ..وعندنا من الكتب ما تحمل نفس الفكر ولمفكرين كبار..من أنا؟؟
أجاب بكل هدوء واتزان يُحسد عليه::
إن كان كلامك صحيحاً..فمن سيؤرخ فترة الاضطراب التي عيشتها كواحد من جيلك؟؟ كيف سنعرف فتره التسعينيات وبعد الالفيه الثانية كيف يفكر معظم جيلك؟؟كيف سنربط بين الأجيال؟؟ لقد مررت بمراحل عديدة بدأت (بمرحلة التكوين) حيث كنت مثل التمثال الإغريقي بلاحدقات لا تري ولا تعرف شيئا عمّا يدور من حولك ،كنت بحق تمثالاً صلباً ، ثم مررت (بمرحلة الرؤية) فأصبحت تمثالاً رومانياً بحدقات ورأيت ،لكن لم تستوعب ، وأخيرا (مرحلة الاتزان) التي أنت بها الآن لك عقل وقلب وروح ورؤية

..أصبحت إنساناً قادراً علي تحمل المسئولية...لهذا شرعت في الزواج وتكوين نواة جديدة للمجتمع وأدركت بوعيك أن النفس هي التي تقود الإنسان وليس العقل
إنك سطر في كتاب وكلنا سطور تُدون علي مر الزمان.....
اكتب وسأكون بجوارك ..
وقبل أن أوافق علي رأيه سألت: لماذا كل هذه الحيرة ؟ ولماذا استغرقت منّي سنوات بعيده؟
أجاب بكل ثقة: الحيرة هي بداية الحكمة ، وما من حكيم إلا وأصابته الحيرة في أمر البشرية ..
تأملت في كلامه وأكمل حديثه:
وسنبدأ من ١٩٩٣ ...منذ أن وقعت عيناك علي ذالك الكتاب ...الذي كان سببا في الاضطراب الديني ..والنفسي...أتذكر؟؟؟
جلس الشبح الذي يشبهنني بجوار الشباك متأملاً.... وكأن الحجرة تحولت إلي دار سينما كبير..يجلس فيها أنا وضميري صاحب صوت الفكر العالي...وأظلمت صالة العرض
وظهرت الشاشة الكبيرة البيضاء.. وشعاع الفيلم السينمائي فوق رأسي...
وكُتب علي الشاشة (في عام ١٩٩٣)
وابتسم الشبح ..وبدأ القلق يدنو منّي....

صيف ١٩٩٣

(الكتاب ذو الغلاف الأحمر)

أري نفسي الآن ...شاب قليل الحجم، بشرته قمحية اللون، لايوجد أدني نوع من الذكاء في عيونه، وشارب خفيف ليضفي عليه شخصية المراهقة، حديث التخرج من المرحلة الإعدادية
لم تتميز هذه المرحلة من العمر إلا بميلي الشديد للإطلاع والقراءة، وكمثل هذا الجيل كانت قراءتي تتمثل في " رجل المستحيل" و"المكتب رقم ١٩ " و" المغامرون الخمسة "..
ولكن أردت التميز عن أقراني فاتجه تفكيري إلي المكتبة التي يمتلكها والدي والتي تتوسط حجرة الصالون ..وبها عدد لابأس به من الكتب الدينية والفكرية والثقافية والروايات والقصص...
وأثناء تجوالي بين الكتب لفت نظري (الكتاب ذو الغلاف الأحمر) لا أتذكر مؤلفه ..ولا عنوانه الفعلي...ولكن أذكر أن محتواه عن الحلال والحرام...وجذبني إليه ...ووجدت نفسي أغوص بين العبارات والكلمات...حتي انتقلت إلي المحيط الديني الواسع ...واكتشفت...أنني أعيش في الحرام !!!!
****
بدأت الحيرة الحقيقية تعلو فكري ورأسي ..وبدأ العقل يعمل في صخب وعنف وهجوم،،و كُفر..
اعتزلت أصدقائي إلا قليلاً منهم، قللت من اللعب معهم، فرضت علي نفسي عزلة ابتدعتها، لم يكتبها ولم يفرضها عليّ أحد
وفي هدوء نشأ بركان من الحمم التكفيرية، ولكنه بركان خامد لم ينفجر بعد
.. في هذا الصيف لم أعرف إلي أين أذهب، لن يفهمني أبي كعادته فحلقة الوصل بيننا مقطوعة، ووالدتي موظفه بإحدى المؤسسات الحكومية علي قدر فكرها ..وإخوتي صغار..ولم أتعود علي الذهاب إلي المساجد إلا في صلاة الجمعة وليس لي شيخ أرجع إليه ..وتحول هذا الصيف إلي حيرة ذهنية وبركان خامد ....
****
والتحقت بالمرحلة الثانوية وأُضيف إلي قائمة أصدقائي أصدقاء جدد وتم تكوين مجموعة طيبة منهم واندمجت معهم تاركاً حقيبة الحيرة في منزلي فقط..
أما عندما أكون بينهم أتحول إلي شخصيتي الطبيعية
وتمر الشهور ونصل إلي عيد الفطر المبارك في مارس ١٩٩٤
حيث اتفقنا علي الذهاب إلي مدينة طنطا والاحتفال بالعيد ..ونذهب إلي السينما ..
مما تميزت به مجموعتنا هو عدم الاقتراب من الدخان ولا المخدرات ولا الفتيات
وبالفعل يومها دخلنا لنشاهد فيلم (الإرهابي) لعادل إمام، وخرجنا من الفيلم وقد ظن احدنا أن السينما ستنفجر بنا
وعند العودة انضم إلي صديقي وجلس بجواري وود لو يسأل سؤالاً ..هل حقا هذه المشاهد الجنسية في الفيلم حقيقية ..؟؟
ابتسمت في شرود فقد انتقلت إلي عالمي مرة أخري..عالم الحلال والحرام..فعقلي المحدود آنذاك صوّر لي إن الفيلم الذي شاهدته منذ قليل هو الواقع الحقيقي...!!
****
بدأت أتقمص شخصية " الإرهابي " عصبي المزاج، مقتضب الوجه، عابس آناء الليل وأطراف النهار..وثار البركان بداخلي وبدأت ألقي بشرائط التسجيل التي بها الأغاني المتنوعة في سلة المهملات..وقاطعت التلفاز ذو القناتين اليتيمتين ..

واتجهت إلي إعلان أن كل شئ حرام ..فعملك يا أمي حرام والموسيقي حرام وملابسكم حرام ...
وما كان رد فعل أبي سوي الضحك..ويقول لدينا إرهابي في المنزل ...ويسخرون منّي ...وأنا أزداد توهجاً
ونقلت عنفي إلي المدرسة ...حتى وصل بي الحال إلي استدعاء من مدير المدرسة ...
***

ذهبت إلى حجرة مدير المدرسة ..واستقبلي المدير بابتسامة جميلة كانت لها تأثير في نفسي وقام وسلّم عليّ وأجلسني في المقعد المقابل له ...لم يجلس خلف المكتب ..طلب لي كوباً من الشاي، وبدأ الحديث حول الأهل والمدرسة والدراسة..حتي انتقلنا إلي عالمي الجهنمي
.. وبهدوء قال
: قل لي يا وليد هل تصلي الفروض الخمسة في المسجد؟
أجبت بالنفي ..وأردفت قائلا: أبي لم يعلمني ولم يذهب معي إلى المسجد ولا علمني الصلاة بالبيت إنه آثم
.. أبتسم وقال لي: لا ليس كذلك..إنما نقول كان مُقصراً ، دعني استفسر عن من هو الشيخ الذي تسير خلفه
أنا باندهاش: لا يوجد
.. سأل:: لمن تقرأ ..؟
أخبرته: لا أقرأ لأحد
. سأل: ألك ورد يومي من القرآن الكريم ..؟
أنا: لا
. هو: أتعرف شيئا عن السنة النبوية الشريفة.
أنا: لا.
اعتدل في جلسته وقال
: إذن أنت لا تقرأ القرآن ولا تعرف شئ عن السُنّة وليس لديك مرجع كتابي ولا شيخ تعود إليه ولستَ طالباً للعلم..إذن لماذا كل هذا الإزعاج؟
انتبهت من غفلتي ..ولم أرد عليه
قام من مقعده وجلس علي كرسي مكتبه وقال
': ابني العزيز (وليد) أعرف أنها مرحلة حرجة بحياتك،المراهقة لها أشكال وألوان مختلفة وقد تكون اخترت الشكل الديني أو ميولك واتجاهاتك هو ذلك الاتجاه الديني العفوي ولا ألومك فغيرك اختار المخدرات وآخرين اختاروا الضياع
..ولذلك فعليك مصاحبة أستاذ وأن تتعلم وأن تصبر، ينقصك الكثير من مدرسة الحياة والمجتمع المحيط بك ولا تلوم الأهل كثيرا وحاول أن تجذبهم إلي طريق الإيمان وهم بخبرتهم سيساعدونك .. وأعتقد أنه سيكون مستقبلك أكثر وعياً وفهماً شكرا جزيلاً علي وقتك يابني العزيز ..ونأمل أن تكون من أوائل المدرسة هذا العام
" خرجت من عند سيادة المدير وصحبتني كلماته الأبوية ...وهدأ ذلك البركان الخامد والغشاوة التي علي عيني تم إزالتها وعُدت طبيعيا نوعاً ما، استأنفت دراستي بالصف الأول الثانوي ،ومرت الأيام والشهور وحضرت إلينا أجازة صيف ١٩٩٤
***
أرخيت جفوني من هذا المشهد الطويل ، وتنهدت تنهيده عميقة قام شبحي (ضميري اليقظ(وقال:
كانت فتره عصيبة ولكن كانت لها أثر طيب لاحقا فمدير المدرسة كان عاقلا ومتزنا وأنت أيضا لم تتمادي في خطأك

لننتقل إذن إلي صيف ١٩٩٤
ووجه وجهه إلي شاشة العرض السينمائي وأنا أمسكت القلم ..فكل ما اكتبه ..يُعرض سريعاً علي الشاشة البيضاء...شاشة الحياة

صيف ١٩٩٤

(كرة القدم الإسلامية)

وطدت صداقتي مع المجموعة الجديدة التي اخترتها في الصف الأول الثانوي ، مجموعة طيبة وكما قلت سابقا بلا دخان ولافتيات وكانت الهواية المشتركة هي كرة القدم
.. وبالقطع كنا نبحث عن مكان نلعب فيه بدون أي مضايقات من أحد ويبدو أننا وجدناه بالرغم من بُعد المسافة،
أرض فضاء واسعة جدا جدا تصلح لأن تكون إستاد و ملعب لكرة القدم
وتعرّفنا علي مجموعة أكبر منا عمراً ويبدو عليهم أنهم شباب جامعي، ويبدو أيضا أنهم يعرفون عدد من أصدقائنا وطلبوا منا الاشتراك معهم في دورة كرة القدم الإسلامية !!
لم نفكر كثيراً ووافقنا علي الفكره ،لاضرر ولاضرار
.. وأستفهم فكري البسيط...كيف تكون كرة القدم ..إسلامية؟؟
***
كانت لدينا خلفية مسبقة عن هذه الدورات الكروية، تكون من عدة فرق وكل فرقة بها عدد معين من اللاعبين وكل لاعب يدفع مبلغا من المال ..يتم تجميعهم وشراء هدايا فرديه لكل لاعب من الفريق الفائز
ولكن مع هؤلاء الأصدقاء الجدد كان الأمر مختلفا
فلابد من المقابلة يوم الجمعة الساعه٧ صباحا ويُشترط صلاة الفجر قبل الحضور، كان الأمر جديدا علينا تماما وبالفعل ذهبنا طبقا للشروط
.. لم نكن فرق كثيرة كما تخيلنا ووقفنا جميعا بجانب بعض وبدأ أكبرنا وهو (الزعيم) أو قائد الدورة الكروية - طويل قليلا وهادئ الملامح وحليق الذقن - وبنبره مطمئنه قرأ سورة الفاتحة ورحب بنا وأفهمنا أننا ممكن أن نلعب كرة القدم ولا نعص الله عزوجل!!
وأن دورتنا يُشترط فيها حفظ سورتين من القرآن الكريم (لا أذكر ما هما) وحفظ حديثين نبويين، وممنوع السباب والشتائم والقذف بالكلمات
وبالفعل تم استفتاح الدورة ولعبنا بالوقت المتاح وبعدها تجمعنا مرة أخري ثم تم دعوتنا من قِبل (الزعيم) وقائد الدورة الكروية في منزله مساءً ودعونا بأدعية جميلة وانصرفنا
***
وقبل الذهاب فكرت ملياً فيما رأيته باكراً، فهذه أول مرة نجد أسلوب جديد في طريقة اللعب، وباعتباري لعبت كثيراً في شوارع المدينة لم أر مثل هذا الهدوء والاتزان والعقل..
وتذكرت حواري مع أحد مدرسين الدراسات الإسلامية أو كما نسميها (مدرس مادة التربية الدينية (عن الكرة وهل هي حرام أم لا؟
وكانت الإجابة أن حرام أن لا نلعبها فهي تُخرج الطاقة التي لدينا ونتعرف علي قوانين لعب جماعي بالإضافة إلي تنمية الموهبة وممارسة الرياضة والدين حثنا علي الاشتغال بكل ماهو مفيد. وبالفعل ذهبنا إلي الصديق الجديد الأكبر عُمراً منا ،وكما أحب أن نجلس علي سطح العمارة، وبدأ التعارف ..بدأ هو بنفسه:
أخوكم في الله (عماد) مدرس لغة عربيه حديث التخرج .....،
لفت انتباهي جملة البداية) أخوكم في الله) ثم سرد معلومات عن نفسه جعلني أشرد قليلاً حتى أفقت من شرودي عند قصة توبته
.. وأنه كيف تاب وآمن وعمل صالحاً عندما وقفت في حلقه قطعة من التفاح كانت ستخنقه، وبعدها علم أن الإنسان لا يملك من نفسه شيئاً طلب من الحضور أن نتعرف علي بعضنا البعض

وعندما جاء دوري ..تلعثمت قليلاً فهذه أول مرة أقول (أخوكم في الله (ولأنه لايوجد حكايات كثيرة ..اكتفيت بالعمر والدراسة والهوايات
... كانت أمسية لطيفة وخفيفة ..وانصرفنا سعداء
*****

توقفت الشاشة عن العرض..فكما قلت سابقا كل ما اكتبه يُترجم تلقائيا إلي صور ومشاهد متحركة مثل الفيلم بالضبط.
التفت إليّ شبحي متسائلاً:
لماذا توقفت؟ألن تكتب عن شيطان الإنس
ابتسمت في هدوء وقلت: أما زلت تتذكر؟
قال: بالقطع شياطين الجن ينصرفون بالإستعاذه منهم، أما شياطين الإنس فلا ..هذه سُنّة كونية
وعادت شاشة العرض تُضاء من جديد
**

في المرحلة الإعدادية كان لي صديق يتميز (بالخُبث) كان في مجموعتي القديمة ورفضته ورفضت أسلوبه وابتعدت عنه بالصداقات الجديدة التي كونتها في المرحلة الثانوية، ولأنه يغير منّي كثيرا فأنضم إلينا ، وعلي وجهه علامات الهدوء والسكينة ولكنني أعلم أن مافي قلبه عكس ذلك وحاولت إبعاده عن طريقنا ولكنني فشلت وحدثت نفسي بأننا قد نكون سبب في هدايته وخصوصا بعد أن نمت مجموعتنا بهذا الشكل الجميل
وبالقطع كان معنا في فرقة كرة القدم و بالتالي تم دعوته إلي الأُمسية التي ذكرتها منذ قليل
... وثان يوم قام بالاتصال بي طالباً مقابلتي بشكل ضروري ووافقت، وذهبت في الموعد المحدد في الكافتيريا المقصودة
. سألني مباشرة: هل ستُكمل هذه الدورة الكروية؟
أجبته بالإيجاب وعلامة اندهاش علي جبيني لأسأل بدوري: لِمَ؟
سال مرة اخري: ألا تعرف من هؤلاء؟
بدأ الغضب يظهر علي نبرة صوتي وسالت باستنكار:ومن هؤلاء؟
ثم أكملت ..متحديا:
شباب مثقف ومُحترم ويُحبون الآخرين، ويحبون لعب كرة القدم بطريقة رائعة ..ألا تذكر الأصدقاء القدامى والألفاظ البذيئة التي كانت تصم الأذن ..غير أننا سنحفظ ما تيسر من القرآن والأحاديث الشريفة والأجمل أنهم يشجعوننا علي ارتياد المساجد للصلاة ونحن لم نكن نعرفها إلا يوم الجمعة فقط ..ما العيب هنا؟
بكل استنكار قال صديقي اللدود
: إنهم من (الإخوان المسلمين (
لا أعلم وقتها هل كان صديقي ينتظر منّي بعد أن يقول (الإخوان المسلمين) أن أقفز من مكاني كأنني أصابني لدغة عقرب!!
وسألت بكل برود: وماذا في ذلك ..إخوان ومسلمين .!!
رد بكل ما أوتي من قوة
: لا أقصد ذلك إنهم (إخوان مسلمين) جماعه دينية، تُشجع الشباب علي الالتزام ولكن نيتهم غير ذلك فيما بعد، والدي قال الكثير عنهم ولكن لا أذكرها وأذكر فقط التحذير منهم وإلا دخلنا (السجون(
بعد جدال ليس بالوقت الطويل ، تركني صديقي ودخلت في متاهة جديدة وكلمة (السجون) تتردد في أذني ..
وبدأت الأسئلة تحوم حولي
لماذا السجون؟
هل السجن لأننا نلعب كرة القدم؟

هل السجن لأننا سنحفظ جزء من القرآن؟
هل لأننا سنصلي في المساجد؟
وهل ..وهل ..وهل .... شكرا يا صديقي اللدود..فقد انتصرت عليّ، فقد خِفت علي نفسي فعلاً ،، ولم أشأ أن أذهب إلي أحد وأسأل عن الإخوان المسلمين فقد علمت أن لها توجهات سياسيه ولم أعد أذهب إلي اللعب معهم، وكانت لدي حجه قويه أنني لا أستطيع أن أستيقظ مبكرا ولم أجد الوقت لحفظ سورة من القرآن ولا الحديث

***

والتحقت بالثانوية العامة الجديدة وهي أن يُصبح الصف الثاني الثانوي هو الشَّطر الأول من شهادة الثانوية العامة والصف الثالث هو الشطر الثاني، واندمجت تماما بالثانوية العامة، ومرت الشهور وانتهت السنتين
لم يحدث أي شئ جديد يُذكر في هذه المرحلة غير أنني بدأت في قراءة روايات إحسان عبد القدوس و يوسف السباعي وغيرها من الروايات وابتعدت قليلاً عن حيرتي، ولكن حدث في صيف ١٩٩٦ شئ عجيب

**

تعبت من السرد وأريد أن أنام .. وافق شبحي المستيقظ دائما، وقبل أن أنام ذكرني بمشهد المحكمة الخيالية التي حدثت في صيف
١٩٩٦
قلت له: اهدأ ودعني أنام ...أنا بشر ولست شبحاً
قال: حقك ....أما أنا الضمير، إذا نمت ..فسد كل شئ
لم أرد عليه .... بقي في مكانه متوجها إلي الشاشة السينمائية ينتظر...المحكمة

صيف ١٩٩٦

(محكمة الأُسرة)

لفت انتباهي أمر غريب، بعد الانتهاء من الثانوية العامة بمجموع كبير، كان سبباً لأن ألتحق بكلية الطب ، أنه لم يقم بزيارتي أحداً من أعمامي أو أخوالي، أين العائلة؟ بدأ السؤال يتردد في عقلي بقوة، وحتى لا أستسلم بأي فكر سلبي أشغلت نفسي بنفسي
.. وعدت مرة أخرى إلي مكتبة الوالد ليقع كتاب بين يدي هو (حوار مع صديقي الملحد) ولأول مرة أسمع بالإلحاد، وقرأت الكتاب، وفُتحت عيني على (ثورة الشك) وبصراحة مطلقة لم أفهم ما يريد د.مصطفي محمود قوله...إلا أنه أوقعني في حيرة جديدة ...هل هناك من يشك في الثوابت الإيمانية؟ يشكون في الحج والكعبة والصلاة والحجر الأسود ...إلخ

.. كان انصرافي عن التفكير في هذه الأمور بسبب التفكير في ما هو أكبر...صلة الرحم..لماذا لايوجد تبادل زيارات بيننا وبين الأعمام والأخوال؟ لا نراهم في المناسبات مثل رمضان أو الأعياد
...!!

لماذا لم أسمع عن ابن خالي أو ابن عمي؟ ألسنا مسلمين؟ لماذا نحن من قاطعي الرحم؟؟
**

ذهبت إلي صلاة الجمعة وفي نيتي أن أجتمع بأبي وأمي وأواجههم بالحقيقة وبكل ما في قلبي وصدري

.. وقدراً وجدت خطيب المسجد يلقي بخطبه عن صلة الرحم ذكر آيات قرآنية وأحاديث أوجعتني في قلبي، إن قطع صلة الرحم من الكبائر، وأنه قد وردت أحاديث كثيرة فيها الأمر بصلة الرحم وبيان ثواب الواصل والنهي عن قطيعة الرحم وبيان عقاب القاطع عنها، أين نحن من كل هذا؟؟

وقررت أن أنتظر بعد أن يفرغ المسجد من المصلين وتوجهت مباشرة إلي الإمام وخطيب المسجد

.. عرفته بنفسي وبمشكلتي ..فابتسم وقال: لابد أنها قطيعة بسبب المال ..إنها فتنة العصر يا ولدي، لاحول ولا قوة إلا بالله

كانت فراسة الشيخ في محلها فأنا علي علم بهذه الخلافات وخصوصا أن أبي وأمي بينهما صلة قرابة وأن العائلة الكبرى واحدة وليست عائلتين

...

إنها مشكلة الميراث، وأن أحدهم كان لديه من الجشع أن أكل مال الآخر ..هذا كل ما أعلمه من خلال أبي وأمي وقد يكون غير ذلك ..ولكن بالتأكيد ..مشكلة ورث

أفقت من شرودي وغفلتي وسألت: وما العمل يا مولانا؟

أجاب: صل رحمك يا ولدي لعل الخير يأتي علي يديك، اذهب إليهم وتحر عنهم، ولكن بدون علم والدك ووالدتك

نظرت إليه باندهاش ...وتعجبت لهذا الطلب

وشكرته علي وقته ونصيحته ..ودعا لي بالخير

.. ودعني بنظره كأنها تقول ..أعانك الله علي أن تتحمل !!!

**

لأن البركان ثار من جديد في نفسي، ذهبت إلي أبي وأمي، وواجهتهم بشكل مباشر..::أين العائلة؟

تطلعا إلي بعضهما البعض في حيرة ..وكأن عيونهما تسألان: لماذا تريد أن تنبش في الماضي يا صغيرنا؟

وقطعت صمتهما بسؤال ألقيته

: إنكم قاطعي الرحم ...لماذا يا مسلمين؟؟

ارتعد أبي من كلماتي ومن نظراتي ومن سؤالي..ويظن أنني جُننت أو نوبة الهذيان التي أصابتني من سنتين عادت إليّ

.. وبنبرة مليئة بالغضب قال: اذهب يا وليد الآن إن الموضوع أكبر من أن تتحمله

. ووجدت في عيون أمي لمعانا كانت دموعاً متحجرة ، وكأنها تسأل...لماذا الآن؟

ومع ذلك لم أراعي أي اهتمام..بل وثرت أكثر وقلت

: لماذا العلاقات باهتة بين أفراد عائلتنا؟

أين أولاد أعمامي وأخوالي؟

لماذا كبرنا ولم نجدهم بيننا ولم يجدونا بينهم؟

كان الصمت هو سيد الموقف، وأصبحت الحجرة التي نتكلم فيها عبارة عن صحراء جرداء، أو ليلة باردة بلا مشاعر دافئة، واعتدل والدي في جلسته وخلع نظارته الطبية وشرد إلي بعيد ..

وكان لزاماً عليّ أن أتركهم فقد ألقيت بحجر ثقيل في بركة ماء راكدة ...ورأيت أمواجا متتابعة ...من السكون

**

بعد هذه المواجهة الساخنة استلقيت علي فراشي متعبا من الفكر ..ونمت وحلمت بحلم عجيب ...حلمت أنني دخلت المحكمة،

وأبي يجلس علي كرسي رئيس المحكمة..إنه القاضي

وأمي ..مكان النيابة

.. وأخي الذي يصغرني علي يمينه والأخ الثاني الأصغر علي يساره

وفي صالة المحكمة أعمامي وأخوالي وزوجاتهم وأولادهم ،،

أشار القاضي (أبي) إلي الحرس أن يأتي بي خلف القضبان، نادي علي المتهم ..قالها القاضي للحاجب

الحاجب: المتهم الأول (وليد) المتهم بمطالبة الوالدين بصلة الرحم

أري وجهي الآن وهو في قمة الذهول والاندهاش، عيوني تكاد تختنق من الدموع المتحجرة، وحلقي وكأن به حشرجة الموت

أنا متهم !! والقضية ..صلة الرحم !!! هكذا حدثت نفسي ..

القاضي: يا وليد أنت مُتهم بخرق قواعد أسرتنا الصغيرة وإنك تود لو تزور أعمامك وأخوالك ...هل هذا صحيح؟

أنا (ومازلت غير مصدقا): نعم ..حدث

الأب: وماهى الدوافع لهذه الجريمة؟

استجمعت قواي لكي أدافع عن نفسي، وبدأت أفيق من ذهولي: أصلة الرحم .جريمة؟! قطع الرحم من الكبائر، ونحن مسلمين ..فمن هو المجرم إذن؟

همهمة في قاعة المحكمة ..جعلت القاضي يضرب بمطرقته ليستعيد الهدوء ..

القاضي: لم تقل لي ماهي دوافعك .؟

أنا: دافعي هو صلة الرحم، فمن وصلها وصله الله، وما هي المشاكل والخلافات...إنها مشاكل في الميراث أليس كذلك ..؟

علت الهمهمة مرة أخرى ...وبطرقات خفيفة من المطرقة هدأ الحضور

استأنفت حديثي:

وماذا بعد؟ ما ذنب أن لا أرى عائلتي ولا أولادهم، ماذنبنا في جشعكم أيها الكبار؟..لماذا تريدون أن نرث هذا الميراث العفن والمتمثل في الكراهية والبُغض والحقد من بعضنا البعض؟ لماذا تريدون أن يكون هذا الجيل مشوهاً مثلكم؟

... الهدوء الذي كان في المحكمة جعلني أسمع تسارع دقات قلبي وتتابع أنفاسي، من شهيق وزفير

تكلم القاضي بهدوء:

يا وليد، إنها مشاكل قديمة وإرث ورثناه كما قلت، ورضينا جميعا به، ولم نعرف كيف نتغير ولم نحاول أن نتغير،حتي نحيا في هدوء ونستطيع أن نقوم بتربيتكم في أمان نفسي، ففضلنا الصمت ورضينا به، إنها سنوات طويلة وبعيدة وماتت هذه المشاعر مشاعر صلة الرحم ..وتم الدفن..والموتى لا يُبعثون في الدنيا

نظرت إليه في يأس وقلت بحزم:

يوما سيثور هذا الجيل علي هذه السلبية وسيكره أفعالكم

وقف أحد الحضور ...وكان أكبرهم عمراً، وقد ارتدى روب المحاماة، وعلمت أنه خالي الأكبر ...وقف بكل ثقة وهدوء وقال: (سيادة القاضي،حضرات المستشارين ..إن مايقوله ابننا وليد صحيح، وأننا أخطئنا في عدم مشاركة هذا الجيل في مشاكلنا ولا حياتنا وستحدث وإن كانت بالفعل حدثت فجوة عميقة جدا بيننا وبينهم، فالجرح عميق وآثاره في عيون أولادنا

يا سيادة القاضي، إذا كنّا كما قلت سيادتكم أننا رضينا بهذا الوضع المقيت ..فإن علي الجيل الجديد أن يشارك بحزم في هذه المشاكل ،ليس للحل ...إنما للوعي..فالوعي هو سلاحهم الوحيد مستقبلاً، الوعي بأن لا يرثوا هذه الآثام والكبائر..علينا أن نعطي لهم خبراتنا في الحياة بكل حب وود ورحمة ..وإلا فسيكون هذا الجيل نسخ مكررة ومشوهة ..بل مسخ ... والمسخ لا يتكاثر...سينتهي ....شكرا سيدي القاضي)

انفجرت القاعة بالتصفيق الحاد ..

وبعد أن استعاد القاضي وقار المحكمة ..

قال: حكمت المحكمة حضوريا ببراءة وليد من التهمة التي نُسبت إليه وأن عليه هو وجيله أن يشاركوا في الحياة الأسرية ...رُفعت الجلسة .

.***

إستقيظت في قمة النشاط والحيوية، سعيدا بهذه البشارة التي رأيتها، وبالفعل بدأت في زيارة أعمامي وأخوالي ..بدون علم الوالدين، حاولت واجتهدت ...وكسرت الحاجز النفسي الذي كان بداخلي

***

ابتسم الضمير الوهمي المتمثل في شبح ..والذي يرافقني كظلي وقال: كانت خطوة إيجابيه منك، أينعم أنها لم تحقق الكثير لاحقاً ، ولكنها كانت بمثابة قفزة نفسية رائعة

أجبت: نعم ..حتى حدثت الصدمة ...

امتقع وجه الشبح

....

صيف ١٩٩٦

(الصدمة)

وقبل أن أودع صيف ١٩٩٦ كان لزاماً عليّ أن أبحث عن شقة مناسبة للسكن بها في مدينة حلوان، لأنني التحقت بكلية الطب جامعة حلوان، وقبل الدراسة بحثت عن شقة مناسبة لي ولبعض زملائي الذين علمت أنهم التحقوا بجامعة حلوان ولكن في كليات مختلفة، وبالفعل وجدنا شقة مناسبة نوعاً ما وقريبة من الجامعة، وودعت أهلي وأصدقائي وعائلتي الكبيرة..وبدأت الهجرة الداخلية

وفي أول يوم لي بالجامعة وجدت أمواجاً بشرية هائلة من الطلبة عند شاطئ الكلية..تعجبت من كل هذه الأعداد، وعلمت فيما بعد أن هذه الدفعة ماهي إلا مولود جديد من رحم الثانوية العامة الجديدة وبقايا النظام القديم، فكانت الأعداد كبيرة لم تشهدها الجامعة من قبل .

بدأت أتأقلم مع الغربة الجديدة فهذه أول مرة أبتعد فيها عن أبي وأمي وأخوتي وأصدقائي، وخصوصاً أن زملاء هذه الشقة لم يكونوا مثل أصدقائي ..هذه المجموعة الطيبة المحترمة ..فقد رأيت فيهم شئ من الانحلال، وعلي حسب مفهومي في هذا الوقت، فهم يريدون أن يتمتعوا بشبابهم وحيويتهم دون قيود، حياة مليئة بالتبغ بمختلف أنواعه والفتيات ...وأنا لست كذلك

***

في شتاء ١٩٩٧

مرت ثلاثة شهور من بداية الدراسة ويبدو أن هؤلاء الأصدقاء الجدد استحبوا العمى علي الهدي، وأصبح إصرارهم علي الخروج والسهر زائداً عن الحد وكأنهم بلا امتحانات مقبلة عليهم، ومرت الأيام سريعاً وانتهوا من اختباراتهم وانتظرت عودتهم إلى أهاليهم في أجازة نصف العام ..ولكنهم أصروا علي قضاء سهرة صاخبة في أحد الملاهي الليلية وحذرتهم وقاموا بدعوتي ..وبالقطع رفضت رفضاً تاماً ونمت مبكراً حتى أعد نفسي للسفر وأعود الى بلدتي وقضاء أجازة نصف العام معهم

استيقظت لصلاة الصبح وذهبت إلى المسجد وقد تعرفت علي عدد من الشباب الصالح في هذا المسجد الطيب، فالصحبة الصالحة دائماً تجدها في المساجد ...طبقا للحديث النبوي الشريف

.. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله. ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه " متفق عليه

وعدت إلي المنزل وأثناء صعودي علي السلم، سمعت صراخ أحد الزملاء في الشقة هرولت مسرعاً ووجدت زميلي في الشقة يصرخ فيّ طالباً الصعود سريعاً وأنهم يبحثون عنّي ..

لم أفهم ما الحكاية حتى وصلت إلي أحد الحجرات ووجدت زميلنا مُمدداً علي السرير وهو في حالة إغماء حاولت إسعافه بالإسعافات الأولية التي أعرفها فقد قمت بتدليك منطقة القلب

والتنفس في الفم .. ولكن بلا جدوى، طلبت الإسعاف سريعاً فكنا في حالة من الاضطراب والذهول ..

وفي خلال هذه الفترة سألت عمّا حدث له ..قصوا قصته باختصار أنه شرب خمراً وأشعل دخاناً كثيراً به نوع ما من المخدرات

أتي الإسعاف بعد عشرون دقيقه فقط.. وبعد قياس الضغط والسكر وبعد الكشف عليه قليلا...

بدت ملامح الأسى علي وجوهم..وأخبرونا بالوفاة

**

انهار الجميع من الصدمة ولم نخبرهم بالحقيقة وقلنا أننا وجدناه هكذا عندما أردنا أن نوقظه لصلاة الفجر ..وصدقونا وخرجوا

كان الانهيار العصبي على أشده واتصلنا بوالد زميلنا المتوفى وقلنا له الحقيقة كاملة ...ومرت الساعات ثقيلة علي النفس فكلنا في ذهول مما حدث ..فمنذ ساعات قليلة فقط كان صديقنا يلهو ويضحك ...منذ ساعات كان في حالة من المعصية ..منذ ساعات...كان وكان .....والآن بين يدي ربه ... يالها من دنيا ...!!

ولأول مرة أفكر في الموت فقد تجسد أمامي ..ودخلت على زميلي المتوفى ..وتحسسته بيدي ..إنه بارد ومتجمد كالثلج ..تأملت في وجهه ..في جسده...وهو بلا روح وتذكرت مواقفه وضحكه طوال الشهور الماضية كان وقتاً صعباً عليّ جداً ..فهذه أول مرة أتواجد في مثل هذا الموقف .. وقمت بوضع بطانية النوم علي جسده وقبل أن أغطي رأسه ..ودعته بقبلة أخيرة علي جبينه لم أعرف وقتها كيف أتيت بهذه القوة، وترحمت عليه ودعوت له بالمغفرة ..وجلست مكاني وبكيت ..بكيت بعنف حتى سمعني من بالخارج وأخرجوني وأنا في حالة إغماء

أفقت من حالة الإغماء علي صراخ وعويل الأم فقد أتت مع والد زميلنا، وقاموا بنقل جثته..في سيارة الإسعاف التي أتت معهم ..وعدنا جميعا إلي مسقط رأسنا وبعد عدة ساعات أخرى قمنا بصلاة الجنازة عليه بعد صلاة العشاء ...وتم دفنه في هذه الليلة ***

عدت إلي منزلي وسط دموع أبي وأمي، ولا أعلم هل هي دموع الفرح أم الحزن علي وفاة زميلنا أم ماذا؟

فالموقف كله في اضطراب..ولأن اليوم كان طويلاً ..نمت مجهداً استيقظت ثان يوم والحيرة تملكتني من جديد، الموت ..

ماهو الموت؟ وكيف يحدث؟ وكيف لم أستطع إسعاف صديقي؟ ماهو الطب؟ وكيف لم أحسن التصرف؟ ولماذا مات؟ لماذا لم يُعطى له فرصة للتوبة؟ لماذا ...لماذا..كيف..؟؟

مئات الأسئلة تجمعت لكي ينفجر رأسي، ومكثت أياماً في منزلي ..حتى حان موعد العودة إلي الجامعة ..فكانت صدمة الأهل عندما أخبرتهم أنني لن أذهب إلي كلية الطب مرة أخرى ولن أذهب إلى حلون ...وبكل عنف أغلق باب عقلي عن التفكير

دخلت نفسي في حالة من الإكتئاب الأسود وأغلقت علي نفسي كل شئ ، عقلي وقلبي وروحي، فالحيرة بلغت ذروتها ..لماذا الطب لم يُسعف صديقي قبل الموت؟

تذكرت أنه كان به شئ من الروح ..بقايا إنسان ينبض ..أكاد أُجن وعقلي أرهق من التفكير، حالتي النفسية في انحدار ظلمات بعضها فوق بعض..حاولت البحث عن كتاب عن

الموت.....وقع بين يدي (لغز الموت) للدكتور مصطفي محمود ..لم يقل ما بداخلي ..وكانت المرة الأولى التي أمسك فيها القلم

وأكتب هذه العبارة

(كلنا يزور الأموات ولكننا لاندري من سيزورنا)

ومرت الشهور ثقيلة جدا ..وأبي يزداد غما بعد غم، وبدون أن أشعر، أخذني إلي أحد الأطباء تخصص أمراض عصبية ونفسية، وكتب لي وصفة طبية بها مهدئات أعيش عليها لمدة من الزمن حتي زادت الجرعة وأضيف إليها منوم ...بلا فائدة

**

وجاء صيف ١٩٩٧

كانت أحلك الفترات ظلاماً،

فقد ارتديت الاكتئاب الأسود

وأحاط المجهول بي

وفكرت في الانتحار،،،

صيف ١٩٩٧

(الفيل)

حل صيف ١٩٩٧ وقد ازداد وزني بشكل ملحوظ، وتخليت عن أصدقائي وحياتي ..وكلما مللت من الجلوس بالمنزل ذهبت إلي مقهى من المقاهي البعيدة عن منزلنا ..وهناك تعرفت علي شاب في معهد فني تجاري ..كان لطيفا، يتيم الأب ..وبدأت أحكي له عن قصتي وكيف وصلت إلي هنا ..وهو أيضا قال لي جملة تعلمها من حياته (إن الوحدة خير من جليس السوء)

ومع الوقت أصبح وزني وزن (الفيل) وازدادت حالتي سوءاً لبُعد العائلة عنّي وعدم السؤال عليّ..ويبدو أنني فشلت في أن اختلط بهم حتى أصدقائي الذين أعرفهم تجنبوني ...

حماده (صديق المقهى)كان علي حق أيضا عندما أخبرني أن الأقارب عقارب ..طالما لايوجد مصلحة ..لن تجدهم ... رضيت بهذا الفكر الغير سليم رضيت به حتى لا أفكر كثيراً فيه

فالرضا استسلام وكنت في أمسُ الحاجة إليه

في حجرتي فرشت كل الكتب مكان السرير ووضعت المرتبة عليه وأصبح مكان نومي، فكنت أسحب كتاباً من تحت المرتبة وبعد الانتهاء منه أضعه مكانه وأستعير غيره، ومع ذلك لم أكتسب من القراءة شيئاً فكنت في حالة لا وعي، إنما كنت أقرا كنوع من قتل الوقت فحياتي أصبحت غريبة، حمادة علمني الدخان ولأول مرة أدخن السجائر، تخليت عن الحلال والحرام لم أعد أذهب إلي المسجد باستثناء صلاة الجمعة، تحولت حياتي إلي انهيار تام وفكرت في الانتحار

.

**

في هذه الأثناء بحث والدي عن شيخ لكي يُخرجني من حالتي النفسية التي حولت حياتي إلي انهيار، وقدراً كان هو نفس الشيخ الذي سألته منذ عام عن صلة الرحم، عرفته وهو مقبلاً عليّ في حجرتي التي أصبحت في حالة اضطراب هي الأخرى وكأنها تعكس شخصيتي الجديدة

لم يعرفني هذا الشيخ في البداية ولكني ذكرته ....ورأيت علامات الأسى والحزن بعد أن سردت له ما حدث،

وضع يده علي رأسي وبدأ يدعو لي وأنا أبكي وما بين النحيب والبكاء قرأ الشيخ هذه الآية

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

انبسطت أساريري وأشرق قلبي في فرحة غابت عنّي منذ شهور ، وقمت وعانقت الشيخ عناقاً طويلاً وبكينا وبكى كل من بالحجرة، وقامت أمي وعانقتني وبكت.. ولأول مرة أشعر بدفء الأم من هذا العناق ..وبعد هذا المشهد الدرامي

... جلسنا وحددنا ماذا سنفعل ..؟

وقام الشيخ الجليل (الشيخ سمير) بوضع فكرة كانت هي بوابة الخروج من أزمتي وهي أن أترك كلية الطب وأن أختار كلية أخرى وتكون قريبة من المدينة التي نسكن بها .. وأفهم والدي أن ما حدث لي نتيجة الغربة والنكسة النفسية من وفاة زميلي وأن حالتي ستزداد بالراحة

إذا عاد مرة أخرى لهذه الكلية وخصوصاً بعد ما إن استقر في عقلي الباطن أن كلية الطب لا تعيد الموتى

سعدت جداً بهذا الاقتراح ورغم ألم أبي وأمي من عدم رغبتي في أن لا أكون طبيباً ،فطيبة قلبهما كانت أقوى من رغبتهما ومن تحقيق حلمهما وقلت على الفور أريد أن ألتحق بكلية التجارة

***

وبالفعل سحبت أوراقي من جامعة حلوان والتحقت بكلية التجارة ورغم أن عدد هذه الدفعة أكبر كثيراً من دفعة كلية الطب إلا أنني أصبحت في حالة راحة نفسية كبيرة جداً

تحسنت حالتي سريعاً ولم يخف وزني بعد ..ولكن بالإصرار علي رياضة المشي والجري بدأ الحال يتغير، وامتنعت عن التدخين وعدت إلى أصدقائي القدامى وعاتبتهم على التخلي عني ...اعتذروا وتأسفوا لما سمعوه

ولم أعد ألتقي بصديق المقهى (حمادة)...ولكنني سالت عليه وعلمت أنه سافر إلي احدي دول الخليج

مرت الشهور وبدأت أستعيد طبيعتي النفسية والجسدية ..وكانت نتيجة الفصل الدراسي الأول هو جيد جداً مع مرتبة الشرف، مما أعطاني قوة دفع بأنني علي الطريق السليم

وتأملت حالي وتأكدت أن العقل السليم في النفس السليمة وليس في الجسم السليم .

****

وجاء صيف ١٩٩٨ كنت أكثر صحة وعافية بفضل الله عز وجل ، وبسبب التجربة القاسية التي مررت بها كان لابد أن أخرج كل ما في طاقتي من هوايات وذهبت إلي مركز الشباب والرياضة ..

كان من المتوقع أن ألتحق بفريق كرة القدم...وهذا لم يحدث .. فاجأت الجميع بالتحاقي بفرقه الفنون المسرحية وخرجت من عالم الظلمات إلي عالم الإبهار والأضواء والنجوم ...

صيف ١٩٩٨

(النجم الباهت)

في صغري كنت أقف أمام المرآة وأقوم بتقليد بعض الفنانين فكنت أنا الجمهور الوحيد لنفسي، وكان ذلك في المرحلة الإعدادية فقد كنت مميزاً بالفعل بهذه الموهبة ولكن لأنه لايوجد فرقة مسرحية أو تمثيلية بالمدرسة، وقفت موهبتي عند هذا الحد ..وقفت أمام المرآة

ولكنني وقتها انضممت للفريق الرسمي للمدرسة الخاص بكرة القدم وهذا لم يمنع من أن أكون مجتهداً في تحصيل دروسي بل شجعني كثيراً علي التميز وفي السنة الأخيرة من المرحلة الإعدادية كان ترتيبي الثالث علي مستوى المدرسة

. وما نراه حالياً من انحطاط أخلاقي ونفسي لطلبة المراحل الإعدادية والثانوية بسبب فقر المدارس في استغلال مواهبهم ..لذلك يلجئون لتفريغ طاقاتهم في المشاغبة والإباحية !

**

ولعل عثوري علي الكتاب ذو الغلاف الأحمر وقراءته كان السد العالي للموهبة التي كانت بداخلي، فقد تنبهت أن التمثيل كذب وحرام ..

وبعدما تخطيت هذه المرحلة وأصبحت جامعياً سألت لماذا الفن حرام ..؟

وقررت خوض التجربة لأجد الإجابة التي تريح عقلي ونفسي انضممت لمركز الشباب والرياضة والتحقت بالفرقة المسرحية وتعرفت على أعضائها وعلمت أنهم من كليات مختلفة كالطب والهندسة والتربية والأزهر ..خليطا عجيبا من الناس لا يجمعهم إلا موهبة مشتركة هي موهبة التمثيل

صادف هذا الصيف وجود مهرجان مسرحي سنوي يُقام كل عام يضم فرق مسرحية من عدة محافظات مختلفة من أنحاء الجمهورية، وكل فرقة تقدم عرضاً مسرحياً أو اثنين، وبعد كل عرض مسرحي يجتمع طاقم الممثلين مع النقاد ويقومون بعمل ندوة خاصة بالعرض وفي نهاية الموسم تُوزع جوائز أفضل ممثل وممثلة وعرض مسرحي ....الخ بحضور أحد الفنانين الكبار المشهورين

***

أثناء هذه العروض نشط خيالي بشكل) مفاجئ) فقد أرى نفسي مكان كل بطل مسرحي ..بل وأتقمص دوره وأحاول تقليده أمام المرآة، وصل بي الحال أنني صدقت نفسي أنني) نجماً لامعاً) ينقصه الاكتشاف فقط !

واستمر الأمر معي حتى قمت بكل الأدوار التراجيدية والكوميدية بل تطور الأمر الخيالي إلي أنني وقفت أمثل أمام الكاميرات وأقوم بعمل أفلام سينمائية

**

ألقيت بقلمي علي الطاولة وتوقفت الشاشة عن العرض فالتفت إلي شبحي متسائلاً: ماذا بك؟

أجبت بانتصار: الآن فقط فهمت ما حدث لي في الصف الأول الثانوي، لم أكن وقتها أبحث عن الدين ..إنما كنت أبحث عن الموهبة !! الموهبة التمثيلية، ولم يلتفت أحد لذلك

لو كان يوجد بالفعل فرقة تمثيلية لما حدث ما حدث ...

اعتدل شبحي في جلسته قائلا:

وأزيدك توضيحاً أنك كنت في عام الحزن ..وكنت في حالة تطرف ظلامي أعقبها تطرف لعالم الأضواء الصاخبة وهذا ما حيَر والدك ووالدتك ...كيف هذا التناقض؟؟ وكدت أن تنزلق لولا

..... استوقفته عن الكلام ...وعُدت للكتابة

**

بعد انتهاء المهرجان المسرحي توطدت العلاقة مع الأصدقاء الجدد وخصوصاً مع (كريم) هذا الشاب كان طالبا بكلية العلوم ومحب للفن عموما وللإخراج خصوصا، اتفقنا علي عرض مسرحية وأكون أنا البطل ..

كانت مسرحية مترجمة واسمها) الزنزانة) تحكي عن اثنين من المساجين في زنزانة ويدور بينهما حوار طويل

بالقطع سعدت جداً بهذه الدعوة وخصوصاً أن البطل الآخر صديقي وأعرفه جيداً...

واتفقنا علي المواعيد المناسبة والتي كانت يوم الخميس من كل أسبوع لأننا كنا بدأنا في الدراسة وكلاً منا مشغول بكليته

وبعد شهر من التدريب الأسبوعي اكتشفت نفسي علي حقيقتها كان اكتشاف أشبه بمطرقة قوية دقت علي رأسي بمنتهى العنف والحقيقة الغائبة عنّي وهي

أنني لستُ موهوباً ولكنني كنت موهوماً

فأنا لم أتقمص الشخصية بشكل جيد مما جعلني عصبي المزاج وكثير الشجار مع المخرج وزميلي الآخر وقمت بتمزيق نسختي من المسرحية وودعت خشبة المسرح بشكل نهائي

جلست ليلتها بمفردي في حجرتي وحاولت أن أتفادى (النكسة النفسية) التي قد تعود إلي بعد أن تعافيت منها، ومما ساعد علي ذلك هو تذكري أنني طالب متفوق في كلية التجارة وأنني لا يجب أن أصيب أبي وأمي بالإحباط مرة أخرى وأن عليّ مواصلة تفوقي وحمدت الله أنني لم أعش في هذا الوهم كثيراً وانقطعت تماما عن مركز الشباب والرياضة وقاطعت الفرقة المسرحية وكل الأصدقاء الفنانين وأقنعت نفسي بأن الفن ليس حراما في ذاته إنما في ما يوجد شبهات في أسلوبه مثل الاختلاط بين الشباب والفتيات وعدم الصلاة بحجة التدريبات غير أن هناك الكثير من الألفاظ والحركات اللاشعورية تحدث بين الشباب غير مستحبة وبهذا المفهوم ....خرجت من بوابة الوهم لتلمس قدمي أرض الواقع ...ولعلها المرة الأولى التي تحدث لي

**

ومرّ العام الدراسي علي خير متفوقاً في دراستي وجاء صيف ١٩٩٩ ..وفكرت في أن أخطو خطوة جادة وهي العمل بمدينة شرم الشيخ في هذه العطلة الصيفية، وقبل أن أحضر حقائبي وقبل السفر

قدرا قابلت الشيخ سمير ..الشيخ الذي نصحني بصلة الرحم والذي جاء إلي المنزل عندما كنت مصاباً بالوعكة النفسية، وبعد العناق الحار بهذا الشيخ الطيب والسؤال عن الأحوال أخبرته

بما أنوي فعله ...نصحني بأن لا أفعل لأن بها من الشبهات ما بها وان العمل المحترم كثير ..وأرشدني للعمل بإحدى الصيدليات الكبرى ،،

شكرته علي نصيحته وطلبت منه الانتظار لكي أفكر وأعطاني رقم هاتفه الأرضي علي أمل أن أوافق

ترددت في البداية فأنا سأعمل مساعد صيدلي وأقوم بترتيب الأدوية غير الخوف من داخلي من التجربة

ولأول مرة استشرت أبي وأمي في هذا الأمر وبالفعل فرحا جداً بهذه الوظيفة المؤقتة وأنها فرصة جيده لكي أختلط بالواقع

اتصلت هاتفيا بالشيخ سمير والذي كان قد اعد كل شئ... فهو بفراسته علم أنني سأوافق ..وأنه استأذن الصيدلي صاحب ومدير صيدلية الشعب ...د. محمد شحاته وان عليّ الذهاب من أول الشهر والذي سيبدأ بعد عدة أيام بسيطة .. شكرته مرة أخري ..وتمني لي التوفيق

***

قام شبحي من مقعده وصفق تصفيقاً حاداً علي انتهاء المرحلة الأولي من حياتي ..مرحلة التكوين ..كانت مرحلة بلا حدقات وأن العمل كان بداية لمرحلة (الرؤية) والنزول لأرض الواقع وطرد للأوهام التي تعايشت معها ...طوال سنوات من عمري حان الوقت لكي أرتاح قليلا وأنام لكي أستعد لكتابة مرحة (الرؤية) التي بدأت

في صيف ١٩٩٩

رواية الحائر - الجزء الثانى

تامر محمد عزت

تمثال روماني بحدقات

"(مرحلة الرؤي)"

صيف ١٩٩٩

(الصفقة المشبوهة)

هل أنت مستعد لمرحلة (الرؤية)؟

ضميري يسأل

.. أجبت: بالقطع على أتم الاستعداد ..فقد كانت فترة هامة في حياتي ..وفيها حدثت الحيرة الأكبر وبلغت ذروتها ..ففي السنوات الأولى كانت الحيرة ذاتية ..إنما في هذه المرحلة الحيرة خاصة بالتعامل مع الناس ...

هيا بنا إلى صيدلية الشعب ..صيدلية د.محمد شحاتة

**

ذهبت إلى الصيدلية التي وافقت أن أعمل بها وقابلت د.محمد شحاتة واستقبلني بشكل جيد ، من هيئته رأيت وقاراً واحتراما وجلست معه وأخبرني بدوري في الصيدلية كمساعد صيدلي وسيقتصر مبدئيا علي ترتيب الأدوية ومراجعة فواتير شراء الأدوية والاهتمام بتواريخ انتهاء الصلاحية للأدوية

. وإن مواعيد العمل من ٩ صباحا إلى ٢ مساءاً

والفترة الثانية من ٥ مساءاً إلي ١٠ مساءاً

الفترة الصباحية كانت تعمل بها د/سهام.. صيدلي ثان ، ومعها فتاتان ..إلهام وهند ...مسئولين عن النظافة وترتيب الصيدلية وإعطاء الحقن للسيدات ..

وفي الفترة المسائية كان يعمل بها د. محمد شحاتة ومعه وائل ..مساعد الصيدلي أيضا ، ويعمل منذ عامين معه وهو خرّيج كلية العلوم قسم كيمياء

كانت البداية طيبة ومن الواضح أن د/سهام لديها خبرة معقولة بالصيدلية وكيفية التعامل مع الجمهور وعرفت لاحقا أنها تدربت في الصيدلية طوال الخمس سنوات وهي فترة دراستها بالكلية مما كان دافعا قويا للدكتور محمد في أن يعطيها مسئولية فتره صباحية كاملة

إلهام مثل هند خريجتان مدرسة ثانوية تجارية ...لم أرتاح لهند كثيرا ..ولا أعرف السبب..أما إلهام فكانت طبيعية

في الفترة المسائية ..لاحظت نشاط وائل ، وأنه سريع الحركة البديهة ، وسؤال قفز برأسي لماذا لا يعمل بشركة أدوية وبراتب أفضل من الصيدلية طالما انه بهذا الذكاء !!

بعد مرور شهرين من العمل بالصيدلية تعلمت فيها الفرق بين تركيزات الأدوية والتي كانت أصعب شئ لي في البداية وكانت أخطاء طبيعية وقعت بها ومع التدريب والتركيز وتعليمات الصيادلة ..بدأت أفهم

****

هدأ قلمي وانطفأت شاشة العرض ..وقال شبحي

: لا تتوقف ...لم يكن هناك خياراً آخر كان لابد من إفشال هذه الصفقة

... واعتدل في جلسته منتظرا عودة شريط الفيلم من جديد

يبدو أن د/ سهام قد أطمئنت لي ولأن هند كانت في أجازتها الأسبوعية فاستغلت عدم وجودها وصرحت لي بأمر لم أكن أتخيل أن يحدث

د/سهام: أريدك أن تشاركني في أمر لأن ضميري يؤنبني كثيراً وأنا عاجزة عن التفكير وعن كيفية التصرف

بدأت أقلق من جملتها وبشئ من الاستعداد لما هو آتي أخبرتها أنني كلي آذان صاغية

ثبتت نظارتها الطبية أمام عينيها وقالت:

وائل الذي يعمل مع د. محمد في الفترة المسائية يبيع أدوية التأمين الصحي لحسابه الشخصي وبمساعدة هند ولها نسبة من المبيعات وهذه الأدوية موجودة في الصيدلية في مكان ما لا أعرف أين هي..فكما ترى الصيدلية كبيرة جدا وبها مئات من الكراتين الورقية وهم يخرجون هذه الأدوية في أوقات محدودة وهي من بعد ذهابي من الصيدلية ومن بعد ذهاب د. محمد أيضا ...

كان لابد من المزيد من التوضيح ووابل الأسئلة نزل كالأمطار عليها...وكأنني وكيل نيابة

أنا: كيف عرفت بهذه الصفقة المشبوهة؟

هي: بداية كان المرضى يقومون بإعادة بعض الأدوية للصيدلية وكنت أخبرهم أنها ليست من عندنا وأنها من التأمين الصحي ...وكانوا يقسمون لي بأنها من هنا وأنهم أخذوها من احدي الفتيات ويشيرون إلي هند. وهند كانت تنكر مما تسبب في العديد من المشاجرات في كثير من الأحيان حتى واجهت إلهام وقالت لي علي الحقيقة

أنا: عفوا يا د/سهام ولماذا وائل يشارك هند في أمر كهذا؟ وكيف يبيعون أدوية مكتوب عليها خاص بالتأمين الصحي ..؟

هي: لأن لها أحد الأقارب يعمل بالتأمين الصحي ...فيعطي لها أدوية محدودة...وكانت فكرة وائل في الأصل ...وأن هذه الأدوية منها شرائط منفردة ومطبوع في ظهر الشريط كلمة التأمين الصحي وغير مخصصة للبيع ولكن بقطعة من القطن مبللة بالكحول يسهل إزالتها غير بعض أدوية الشراب

..وهناك أدوية كاملة بعلبتها يبيعونها لأن العلب الكاملة غير مكتوب علي الشرائط من الداخل ..أما العلبة الكاملة فهم يلصقون ورقة مطبوع عليها اسم الصيدلية ....والمريض لا يعلم عن ذلك شيئا وخصوصا أنهم يقومون بعمل خصم لبعضهم حتى لا يلتفت إلي الدواء بأي حال

ذُهلت من هذه الخطة الغريبة .... ومن الحيلة في الرزق ولم أستوعب ألهذا الحد يصل بنا التفكير في الخيانة ولمن؟ لصاحب العمل الذي استأمنا على ماله وحاله ..

د/سهام ألقت بالكرة في ملعبي حتى أتصرف ولكن كيف ..؟؟

فليس لدي دليل علي كلامها ولا يوجد إثبات ولا دليل إدانة لهند ووائل ....ولابد من الدليل وليس الشك أو سوء الظن ..

وبعد تفكير كانت هذه الصفقة هي إجابة السؤال الذي سألته لنفسي ....لماذا لا يعمل وائل في شركة أدوية ...؟

****

وبعد عدة أيام ذهبت إلي الصيدلية في الفترة المسائية كانت الصيدلية علي صفيح ساخن ود. محمد شحاتة في غليان ..وهند واقفة بجانب وائل وكل منهما يشير بأصابع الاتهام للآخر

....

وبعد الضغط الشديد ...أفرغت هند كل ما في صدرها

وأفرغ وائل كل ما في قلبه ...

وبالقطع قمت بأداء عالي الجودة من التمثيل وأنني لا أعرف شيئا .....بل ومندهشاً !!

وقامت هند بإخراج كيس أسود كبير به الأدوية الغير مخصصة للبيع ...

قام د. محمد بصرف باقي الراتب لوائل وهند ثم قام بطردهما بعدما أسمعهما كلاما لمحاولة إيقاظ الضمير.

كان الوقت لا يسمح لي بالسؤال عن شئ غير أنني هدأته وطلبت منه البقاء بالصيدلية حتى وقت الغلق وبعد ساعتين أعطاني ورقة وقال اقرأ بصوت عالٍ

أمسكت بالورقة وقرأت

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزي د. محمد شحاته أود أن أبلغكم بكامل أسفي أن هناك شئ ما يحدث بصيدليتك متمثلة في بيع أدوية من التأمين الصحي ولولا عهدي بك أنك طاهر اليد من خلال سنوات طويلة نتعامل معكم لكنت أبلغت هيئة التفتيش ولكن الأمر تكرر مع عدة أصدقاء وكان لزاما أن ابلغ سيادتكم حفاظا علي تاريخ الصيدلية واسم شخصكم المحترم ...

عميل من عملاء الصيدلية

وبعد أن فرغت من القراءة قال د. محمد بصوت حزين

: أرأيت يا وليد ..خيانة في صيدليتي ..لماذا؟؟ راتب وائل وهند من الرواتب العالية غير بعض الإكراميات في المواسم والأعياد

لقد تعبت كثيراً في هذه الصيدلية سنوات طويلة جدا ..لماذا الخيانة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله ...أين الرضا؟ نعم ..نعم ...صدق الله العظيم في كتابه

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.

تعلم يا وليد من هذا الدرس أنك لن تأخذ أكثر مما قسمه الله لك والمهم أن ترضى به ...

مر الوقت وبعد أن أغلقنا الصيدلية ..أخبرني د.محمد بأن المواعيد ستتغير لكي يكون معي طوال الفترة المسائية ووافقت بالطبع

وثان يوم قمت بالاتصال بالدكتورة سهام أثناء فترتها الصباحية بالصيدلية وأبلغتها بأن المواعيد قد تغيرت وأخبرتني أنها علمت بالذي حدث أمس وعلمت بشأن الرسالة وسألت من الذي أرسلها

قلت لها دون أن تراني مبتسماً: أنا ...أنا من فعلت ذلك ...فلم يكن لدي دليل ولا إثبات ..ولم يكن لدي غير هذه المحاولة ...إما تنجح أو تفشل وبدون أن نكون في الصورة ...

كانت د/سهام سعيدة جدا بهذه الفكرة وشكرتني وأنا أيضا شكرتها لأمانتها وحُسن تصرفها

***

كانت الفترة المسائية التي قضيتها مع د. محمد فترة أكثر من رائعة ،فكريا وعلميا فقد تعلمت منه الكثير وتأملت الناس من زاوية أخري ورأيت كيف الثري بخيل في صحته لأجل توفير المال والفقير يستعد لدفع كل ما يملك – مع إنه لا يملك - من أجل صحته ،تركيبة عجيبة وغريبة ..من البشر وحان وقت توديع الصيدلية وأن أعود مرة أخرى للدراسة ولكن د.محمد طلب منّي أن اعمل لديه في وقت الفراغ بالكلية مع العفو الكامل فترة الاختبارات ..

وبالفعل كانت الأيام تبادل وتوافق بين الكلية والعمل والمذاكرة وانشغلت جدا وكنت سعيدا جدا بهذه الفترة اقتربت كثيراً من فلسفة الحياة عن طريق حوارات طويلة مع د. محمد ...والذي كان مفاجأة بالنسبة لي ...

صيف ٢٠٠٠

(في صالون د. محمد كانت لنا أيام)

لو أن هناك صالونات أدبية لكان د.محمد شحاته له صالوناً أدبياً بجدارة فهو من القلائل الذين تجدهم علي درجه عالية من الوعي والثقافة والفهم ، ومع زيادة الاقتراب منه قصصت عليه حياتي القصيرة وكيف وصلت إلي هنا ..وكيف تركت كلية الطب وانتقلت إلي كلية التجارة وكان التفكير وقتها انفعالي بسبب وفاة زميل لنا وأن الطب لا يُسعف الأموات

كان يستمع إليّ باهتمام وشغف ...ثم قال بمناسبة هذا الموقف:

لقد اختصرت الطريق جدا، وبالرغم من أن ذاك الموقف كان ممكن يعطيك دفعه إيجابية وأن تهتم أكثر بدراستك لكلية الطب مع بعض الوعي من الأهل والشيخ سمير ..وتصبح طبيباً متميزاً ولكن لأن الله عز وجل إذا أراد أمراً يَسر له أسبابه

ذكرتني بصديق طبيب تخصص جراحه عامة ومتزوج من صيدلانيه زميلة وكان يقوم بعمل العمليات الجراحية بعيادته ويوما ما مات المريض تحت يديه ولولا أن أهل المريض من المؤمنين بقضاء الله لكان طبيبنا في السجن بسبب خطأ ارتكبه أثناء العملية الجراحية ، فقد حقن المريض بحقنة ما أفقدت الجهاز التنفسي حركته ، ومن بعدها ترك الطب وباع العيادة وعمل مع زوجته بالصيدلية واكتفي بالبيع والشراء

يا وليد إن الحياة أشبة بقطار يسير بسرعة شديدة ويقف عند محطات محددة وإما أن تبقي بالقطار منتظر المحطة التي تريدها أو تنزل في محطتك ، حتى يقف عند المحطة الأخيرة

وأنت نزلت مبكرا لأول محطة في حياتك ،لعله خير

سألته: لماذا لا نفكر في الموت؟ وقت الحادث كانت الصدمة قوية بالنسبة لي وكأنه شئ جديد عليّ أو مفاجأة غير محسوبة

أجاب مبتسماً:

لأن الذي مات صغيراً في العمر وليس كبيراً بالدرجة الكافية ،وأن من في عُمرك من الصعب أن يفكر في الموت وأنت في مقتبل حياتك ولازلت زهرة تتفتح للدنيا ، فكيف تفكر في الذبول !!

إن للموت فلسفه عميقة ، وهذا الفِهم لفلسفة الموت لا يأتي بمجرد موت عزيز لدينا ..فإننا نري أناسا كثيرة يفقدون أعز ما لديهم ومع ذلك ..لم يأخذوا من الموت عِبرة ولا عِظة ! لأن الدنيا وزينتها وفتنتها أقوي من الموت في نظرهم ، إن الموت انتقال الروح من دار الدنيا إلي البرزخ ثم إلي دار الآخرة، كل مايحدث هو انتقال للروح أما الجسد لأن خرج منه

الروح فيموت ويعود إلي مكانه الأصلي وهو التراب ، وسبحان الله تتحول الأسماء وتتبدل بمجرد أن تخرج منها الروح

مثلا الميت يصبح أسمه جثة والبيت عندما يُهدم يصبح أطلالاً ....ولو فهمنا معني (إهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ) لارتحنا كثيرا وأن الطريق المستقيم في الدنيا هو نفس الطريق المستقيم للجنة ، لذلك كل ما يحدث هو انتقال للروح التي كانت تسير في خط مستقيم إلي الجنة

***

كان الحديث مشوقاً فاستجمعت شجاعتي وقلت:

ولكننا ليس كلنا نسير في الطريق المستقيم

أجاب:

أصبت ..إن الإنسان له نفس واحده وإمّا أن تكون نفساً لوّامة أو نفس أمّارة بالسوء .. وتلك معركتنا الحقيقية مع الشيطان فالنفس اللوّامة تلوم نفسها علي كل خطأ أو ذنب اقترفه النفس الأمّارة بالسوء ..وهكذا فنفس المؤمن نفس لوّامة وتبقي كذلك في حالة من الاستغفار والعمل الصالح حتى عند الموت تصبح نفساً مطمئنة بإذن الله ...لذلك يقول الله تعالي

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي

أرأيت...ارجعي ..النفس إذا أطمأنت في الدنيا تموت ..واطمأنت لبشري الجنة ونعيمها ...

ولم يقل للنفس المطمئنة اعملي ..فلا يوجد نفس مطمئنة في الدنيا ..

شردت قليلا وتذكرت وقلت: لقد أكدت لي معني مهما أن بعد (الصدمة) وبعد أن تعافيت نفسيا بالاضافه إلي الأخذ بالأسباب وتناولت العقاقير المهدئة أن الإنسان يقوده نفسه وليس عقله

أومأ رأسه بالإيجاب ...وقال:

نعم ..لذلك يوجد (علم النفس) وبالرغم من الأبحاث والتجارب منذ سنوات طويلة ..وبالرغم من وجود علماء وخبراء بهذا العلم ..إلا أنه علم متغير وليس ثابتاً ...لأننا كلنا نتغير مع الوقت

**

لم يكن يقطع حديثنا الممتع سوي بعض الوصفات الطبية ..

وبعد أن جلس علي مقعده الخاص قلت له:

من الواضح أن لك فلسفة خاصة بالحياة يا د. محمد بالرغم من كونك صيدلي أي تهتم بالتجارة ...فمن أين لك هذا؟

أجاب:

من الحياة ومن كثرة القراءة والتأمل في أحوال الناس وعندما تكبر قليلا وتدخل في الحياة بشكل أعمق ستفهم كلامي بل وستزيد عليه لأن بالتأكيد زمنك سيختلف عن زماننا هذا ، كما اختلف مع من سبقونا وكما أخبرتك أن الناس ستتغير ...فستنشأ فلسفة جديدة وطرق جديدة لفهم الحياة

سألته: تقول يا سيدي ..كثرة القراءة ..أنا أيضا أحب القراءة وقرأت ولم استوعب الكثير ..فما فائدتها إذن؟

قال: القراءة إن لم تُكسبك الوعي فأنت لم تقرأ ، لا تفكر في كاتب مفضل أو كتاب مفضل ..إنما كن مثل صاحب الورد تقطف من كل حديقة وردة ....

****

لماذا نكره بعضنا البعض ؟؟

كان سؤال وجهته إلية كقذيفة في قلب المدينة ..ومنتظر أسمع دويها ...

فقال: لأننا نري أنفسنا علي حقيقتها؟

سألت مندهشا: بمعني؟

قال:

أننا نحمل شخصية مزدوجة ، مرئية وغير مرئية ...وسأشرح لك بمثال ...أنا مثلا أكذب ولكنني من داخلي لا أريد أن أعترف بهذا الكذب ..بل وأدّعي الصدق ، وكلما رأيت شخص ما يكذب ..استاء منه ...ليس لأنه يكذب لكنه يجسد شخصيتي الغير المرئية وأري رد فعل الآخرين علي هذا الكاذب وكأنهم يشيرون إليّ ...فأكرهه وأكره المجتمع من حولنا ...وهكذا في صفات ومواقف وردود أفعال كثيرة

توقف د. محمد عن الكلام واستقبل مكالمة هاتفيه ...

بدأت أفهم ما معني أن الإنسان يحمل شخصية مزدوجة ويظل يعاني من نفسه عندما يري الآخرين ...لأن الآخرين هم الصورة الحقيقية لذاته ويفعلون ما يفعل ...ولكنه في حالة استنفار وهمي ..وبالتالي فإننا في حالة كراهية مستمرة للمجتمع الذي نعيش فيه

والحل يا سيدي الكريم؟؟ هكذا سألت

قال: مصالحه حقيقية مع النفس وفهم طبيعة الآخرين ، لأننا في حالة عجيبة من الشحن والتفريغ بسبب أوهام في مخيلتنا ...البحث عن الذات لابد له من عزلة إجبارية لكي تفهم نفسك جيدا

***

كنت في حالة هدوء النفسي مع د. محمد شحاته ، والعمل معه لدرجة أنني تمنيت أن لا أتركه أبدا...ولكن وصلت للمحطة الأخيرة من الرحلة الجامعية ولابد من الحفاظ علي تقديري الجامعي الذي أحمله منذ ثلاث سنوات

وسألته يوما عن الحب ؟ وهل للحب فلسفة أيضا؟

ضحك وقال:

بالتأكيد له فلسفه وأن الحب أنواع ولعلك تقصد هذا الحب العبثي الذي يحدث بين شباب وبنات الجامعة ..

قالها والتفت إليّ: أوقعت في الحب؟

تدفق الدم في وجهي ليعلن عن الخجل ...فضحك د. محمد

وقال:

لا عليك ، فهذه مرحلة نمر بها بل ونظن أنها آخر الدنيا وأن لو لم نحصل علي ما نريده ...ستقوم القيامة

وضحك مرة أخري

وكان لابد من تصحيح الأمر فقلت :

لا ياسيدي ، لم أقع في الحب ولكنه واقع وملموس وموجود بين شباب وفتيات الجامعة ، ولا ننكره وحضرتك قلت ..إنه حب عبثي !.. وأريد أن أفهم .

اكتسي علي ملامح د.محمد الجدية وقال:

لأنه ليس حُباً ناضجاً ...إنه فتره نفسية في مرحلة المراهقة ،فترة ليست لديها أي مسئولية ، وأنها حالة من التمنّي ، فالحب بناء وكما قلت مسئولية ..وأجمل أنواع الحب هو الحب في كل الظروف ...إن الحب تضحية وليس قضاء وقت ممتع فقط ، والحب خيال نود لو نعيش فيه طوال العمر ولكن الواقع مؤلم وحقيقي ، والحب اختبار صعب ..إنما ما تقوله هو فراغ عاطفي لفترة ما في عمر الشباب وينتهي ...الكارثة هنا هم من يعيش علي هذا الوهم لسنوات طويلة

سألته: كيف؟

قال: هناك قصص كثيرة والفكرة واحده وهو أن الشاب مثلا يتقدم لخطبة حبيبته ولظروف ما يتم الرفض ، ويحزن كثيراً وقد يتزوج من أخري ويُرزق بأطفال ..وبعد سنوات يتذكر من كان يحبها أو تُتاح له الفرصة في استعادة الحب القديم بشكل أو بآخر ...ألم أقل لك إن الحب مسئولية ونضج ..؟

**

انتهيت من دراستي الجامعية وحصلت علي تقدير جيد جدا مع مرتبة الشرف ، وكنت وقتها لازلت أعمل في الصيدلية حتى أعرف موقفي من الخدمة العسكرية بالقوات المسلحة ، وقمت بعمل ورقة السيرة الذاتية للبحث عن عمل مناسب ومناسب لتقديري العلمي ...ولكن بعد عدة أشهر فقدت الأمل في إيجاد عمل مناسب ، وأنا أريد وظيفة ثابتة ذو دخل محترم ،

وقدراً وجدت فرصة عمل (مندوب مبيعات) لإحدى الشركات الدوائية الاستثمارية ...

وطلبت المشورة من د. محمد ..وشجعني علي هذه الخطوة التي سأكتسب منها خبرة كبيرة فأنا سأقابل ناس آخرين في أماكن مختلفة ، غير العمل بالصيدلية الثابت ...وفي نفس الوقت ابحث عن عمل آخر ..لن تخسر شيئا

فكانت هي المرة الأولي التي أسمع بها عن أن اعمل وأبحث عن عمل !!!

ودعت د. محمد علي العمل معه لمدة عامين وتعلمت منه الكثير ودعي لي بالتوفيق .....

وتذكرت عبارته (أن الناس ستتغير وستنشأ فلسفة جديدة وطريقة جديدة لفهم الحياة) ....وهذا ما حدث لي مع العمل الجديد

خريف ٢٠٠١

(انتكاسة أخلاقية)

ذهبت بأوراقي المطلوبة وقدمتها لشركة الأدوية وهي شركة استثمارية حكومية وعلمت بمهمتي الجديدة كمندوب مبيعات وأن عليّ أن أعمل مندوب تحت التمرين مع زميل يُدعى(ماجد) حتى أعرف مع من نتعامل من صيدليات ومخازن أدوية وشركات توزيع للأدوية وفترة التدريب مدتها ثلاثة أشهر وبعدها سوف يتم نقل ماجد إلى فرع آخر من فروع الشركة

من هو ماجد؟

شاب في الخامسة والعشرين من العمر خرّيج كلية التجارة مثلي شخصيته لها جاذبية خاصة فهو مرح وإنبساطى ومرن ولطيف الكلام وهي مميزات مندوب المبيعات الجيد لذلك فهو ناجح جدا بل ومحترف وفاهم لحركة السوق بتقدير امتياز وعيبه أن قفصه الصدري مرتع للتبغ وأعتقد أننا لو قمنا بعمل أشعة سينية لقفصه الصدري لوجدنا كم من الخطوط البيضاء دليل علي شراهته في التدخين

غير أنه يملك عيباً ولكنه يعتبره ميزه وهو (الكذب)

فهو يعد مثلا صاحب صيدلية بأن يُورّد له الأدوية في الغد ..ولا يحدث ، أو أنه سيأخذ إشعار مرتجع للشركة ولا يفعل ..

وعندما يواجه هؤلاء فإنه يرمي بالعيب علي الشركة ويتهمها بالتقصير وأنه مجرد موظف ليس بيده شئ ..!!!

بعد أن أصبحنا صديقين واجهته يوما وأخبرته بأن ما يفعله يُسمى كذباً وهو من أرخص الأساليب في التجارة

ضحك من كلامي وقال كلاماً جديداً في عالم التسويق:

يا عزيزي ..إن عليك أن ترفع كل ماهو قذر متواجد علي الأرض وتضعه فوق رأسك وعلى لسانك لكي تعيش وتستمر في عالم

التسويق والذي أُسس بنيانه على الكذب والخديعة

كنت علي موعد مع الاندهاش مع هذا المنطق المغلوط وتذكرت د. محمد شحاته وأن منطقه وفلسفته عكس هذا الكلام تماما ورويت لزميلي ماجد عن د. محمد وعن أخلاقه وكيف اكتسب احترام الجميع بسبب علمه وأخلاقه

وبجدية قال ماجد:

لابد أن تفهم أمرا وهو أن صيدلية الشعب وغيرها نشأت منذ سنوات بعيدة وكان العدد قليلا تكاد تُعد على الأصابع وكان وقتها يجب التميز بالعلم والاجتهاد لأن السوق الدوائي لم يكن به كم هذه الأدوية ولا كم من شركات أدوات التجميل غير أن تركيب الأدوية كانت صفة مميزة لكل صيدلي أما حاليا كما ترى الصيدليات انتشرت في كل شارع وستصبح عددها أكثر كما قالوا لنا في إحدى الاجتماعات في الشركة بسبب الأعداد الهائلة التي ستتخرج من كليات الصيدلة

- تذكرت العدد الكبير في الدفعة التي التحقت بها في كلية الطب جامعه حلوان – ...ثم أكمل حديثه:

وأن هناك طفرة غير عادية ستخرج للسوق قريبا ،وبعد عدة سنوات كما هو مُتوقع أن سيكون بكل حارة ..صيدلية ...ومجال التميز هنا سيكون تجاريا وليس علمياً لذلك يا صديقي المرونة وسرعة البديهة وحُسن التصرف هم أساسيات نجاح مندوب المبيعات ولو بالكذب !!

**

كنت أتأمل عباراته وأشرد في الواقع المؤلم وفكرت ماذا لو كنت طبيباً ، هل كنت سأتميز بالعلم أم أنني سأستغل العلم من أجل التجارة !!

أفقت من شرودي علي قوله:

سأروي لك قصة ذات يوم أردت أن أدخل بعض من الأدوية التابعة للشركة لإحدى شركات البترول وبالفعل ذهبت وسألت عن المسئول في صيدلية الشركة ووجدته طبيباً وتعجبت كيف لطبيب أن يكون مسئولاً عن صيدلية !! ولكن بالواسطة من الممكن أن تعمل عملاً غير عملك أو إضافة إلى عملك وبالتالي يزداد الراتب

قابلته ووجدته رجلاً عصبياً وسمجاً وضخم الجثة ولسانه أطول من نهر النيل ويتعامل مع المندوبين كأنهم خدم عنده كان شخصية مريضة...وتعاملت معه بكل مرونة وبما يلاءم شخصيته

حتى قال لي:أنت يا ماجد مندوب مرن ومتميز وستكبر في عالم التسويق كثيراً ، استمر في عملك

أنا كنت في أول العمل مثل الفتاه العذراء التي تخجل من كل شئ ...وماذا حدث؟ انخفاض في المبيعات لدرجه أنها هددتني بأن أكون بلا عمل ..لذلك رفعت بُرقع الحياء وصبغت لساني بالألوان و أصبح لي وجوه كثيرة غير وجهي ، حتى أنني نسيت ملامحي ..ليس مهما ...فالحياة قذرة بكل الأحوال

..كاد عقلي أن يطير بما أسمعه و ماهذا التناقض البشع بين الفلسفة الخاصة لجيل مضى متمثلا في د. محمد شحاتة

وفلسفة واقعية متمثلة في جيل ماجد وكان سؤالي أين أنا من الجيلين؟

آن الأوان أن أعترف ...أن الجيل قد اختلف

**

لاحظت أثناء تجوالي مع ماجد في أرض السوق التي لا تهدأ من صعود وارتفاع أنه عندما يذهب إلي بعض أمناء مخازن الشركات فإنه يضع في جيبه عملة ورقية وقدرها عشرة جنيهات ويعطي لآخرين خمسة جنيهات !!

وذلك مقابل طلب توريد بعض أصناف الأدوية ..

أخبرت ماجد باستيائي لهذا الموقف ...فقال:

لماذا؟ لكي ترفع نسبة المبيعات وتحصل علي (نسبتك من المبيعات)لابد من أن تفعل كل شئ ..وأنا أدفع من هذه النسبة التي أحصل عليها مقابل نسبة أكبر وهكذا ..فأنا أدفع عشرة جنيهات وأحصل علي نسبة مائتي جنيه ...وهكذا ...بعيدا عن الراتب الأساسي ....وليس الأمر شهريا إنما لابد أن يكون لديك جهاز حساس للمبيعات وقراءة لمؤشر السوق ..ومتى يصعد ومتى يهبط ..ومع كثرة الاحتكاك ستعرف هذا جيدا

لأول مرة أغضب حتى احمر وجهي وبعيون مشتعلة قلت:

كفى منطقا مغلوطا إنها رشوة ..أنت تُرشي أمناء المخازن وهم غير أمناء بالمرة ..إنهم مخادعون ...الراشي والمرتشي في النار...ما هذا الوحل الذي انغمست فيه ..؟؟؟

لم يرد عليّ وتركني ..وكأنه يقول ..ستفهم كل شئ في وقته

وجاء وقت الرحيل...واستلمت العهدة من ماجد وقبل أن يتركني نصحني بأن أحذو حذوه وأن أسير بنفس المبدأ سخرت منه وأخبرته إن هذا ليس مبدأ إنه بناء خاطئ ولو المجتمع كله بهذا البناء فاستمع لهذه الآية

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

ابتسم بلا أمل ومط شفتيه علي أمل أن أفهم لاحقاً ودعي لي بالتوفيق

تركني وصممت علي أن أضع بصمتي الشخصية في عالم التسويق ...لعلي أكون مثالا يحتذي به

شتاء ٢٠٠٢

بعد شهرين على عملي قام المدير الخاص بي باستدعائي

وقال غاضبا: المبيعات انخفضت طوال الشهرين الماضيين يا وليد ...لماذا؟ بعد أن كان المنحني في صعود أصبح في هبوط ...ألم تتبع أسلوب ماجد؟؟ما الخلل الذي حدث؟ أحذرك من الانخفاض المستمر

خرجت من عنده كاظما غيظي والغضب مكتوم بصدري وكأنني رأيت شبح ماجد عند باب الغرفة وهو يسخر منّي.

خرجت تائها وبدون وعي ذهبت إلى السوبر ماركت واشتريت علبة من التبغ لأحرقها قبل أن أحترق ..وذهبت إلى مكان بعيد وجلست طوال الثلاث ساعات أفكر ..ونظرت إلى عمود الدخان وتسلل الشيطان إلى رأسي فلابد أن أحرق فكري وعقلي كما أحرق هذا العمود ...

وأُحيطت بي الأسئلة من كل مكان ...

لماذا تركت كلية الطب؟

لماذا لم أبق بكلية الطب وأقوم بالتحويل إلى جامعة أخرى؟

لماذا اجتهدت طوال الأربع سنوات؟

ما فائدة تقدير الكلية إذن؟

ما هذا الذل والعار والغش؟

الرشوة والكذب هما قاعدتان رئيسيتان لتحقيق النجاح ..إنه المنطق المُعوّج والمعظم يعمل به ...والباقي يعاني منه

أيكون هو التيار الطبيعي ..؟

وإذا سرت ضده جرفني وابتلعني ...وأغرقني !!!

وكما دخل الليل بظلمائه ..دخلت أنا في ظلام عقلي وشبح ماجد يجلس أمامي ويردد نفس الكلام

إن عليك أن ترفع كل ماهو قذر متواجد على الأرض وتضعه فوق رأسك وعلي لسانك لكي تعيش وتستمر في عالم التسويق والذي أسس بنيانه علي الكذب والخديعة

قمت من مكاني وعلبة التبغ أصبحت فارغة من عواميد الدخان وعقلي أيضا أصبح فارغا من المبادئ والقيم ....

واعتذرت لشبح ماجد وقبلت أن يسكن شبحه داخلي

بعد مرور ثلاثة أشهر ارتفعت المبيعات بشكل ملحوظ فقد سرت خلف خطوات الشيطان و استسلمت للرشاوى وللكذب والمرونة الخادعة والضلال المبين

وزارني شبح ماجد وهو يصفق لي

***

تعبت من الكتابة وظهر شبحي أخيرا بعد غياب

وقال: كانت فترة صعبة ..لقد تبدلت تماما وأظهرت شخصية غير شخصيتك ...

قلت:: لا اعرف كيف حدث ذلك ..!! كيف يتغير الإنسان ويتحول إلي شيطان ..!! أهي الحاجة إلى العمل؟ أم إلى المال؟ أم إلى إثبات الذات؟

قال شبحي بهدوء: أتذكر الآية الكريمة

)) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا))

فهذا الذي حدث معك....أضعت الصلاة واتبعت الشهوات .... هيا...ماذا تنتظر؟؟ أكتب ....

وعادت شاشة العرض من جديد

**

انتكست أخلاقي وأضعت الصلاة وأصبحت شرها للدخان وأصبح إعطائي للرشاوى شيئا تقليديا وخفت على نفسي من الضياع ....

كرهت نفسي وكرهت شخصيتي الجديدة التي هي غير شخصيتي الحقيقية ...ما الحل؟؟

إنني في صراع بين شخصيتي وشخصية ماجد التي كرهتها وقبل أن أعود إلى منزلي سمعت الآذان ..إنها صلاة العشاء ..

لبّيت النداء ودخلت المسجد واستحييت من أن تتواجد في جيبي علبة الدخان ..فألقيتها في سلة القمامة

وأثناء وضوءي شعرت أنني أقوم بإزاحة شبح ماجد من داخلي

ولأول مرة منذ فترة طويلة شعرت بالنور على وجهي ..

وقمت بركعتين تحية المسجد وبعد أن فرغت من صلاتي جلست أفكر في حالي وكيف أستقيل من عملي وما هو البديل؟

وتذكرت قوله تعالي

"الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيم"

انتبهت لإقامة الصلاة ووقفت بين يدي الرحمن

ورفعت يدي لتكبيرة الإحرام وكأنني أزيح وساوس الشيطان من أذني وهو يعدني بالفقر ..وقرأ الإمام سورة الفاتحة وأتبعها بسورة الضحى

"وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّث"

وقعت الآيات في قلبي وكأنني أول مرة أستمع إليها ...ولم أشعر بحالي ولا بانتفاض عيوني وبكيت ولم أشعر بنفسي إلا في السجود ...وأنا أدعو الله أن يغفر لي وأن يشرح صدري دعوت بكل جوارحي وجسدي كله يرتعش

حتى قمنا للركعة الثانية وسمعت سورة الشرح

"أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب"

كاد أن يُغمى عليّ من البكاء والنحيب ..حتى فرغنا من الصلاة لأجد من حولي دامعة عيونهم وأصبحت الصلاة حالة روحانية ورزق للجميع

***

خرجت من المسجد ووجدت مطوية من مطويات المسجد ...فأطلعت عليها فإذا بحديث نبوي شريف يقول

"مَنْ تَرَكَ شَيْئَاً لِلّهِ عَوَضَهُ اللهُ بِخَيْرٍ مِنْه"

عزمت بجدية على الاستقالة وصرفت كامل مستحقاتي وكنت فرحاً بهذه الخطوة وانتصرت على شيطاني وسط دهشة الجميع

وبقيت في منزلي أربعة عشر يوماً داومت علي الصلاة والاستغفار...وعدت للعمل مع د. محمد شحاتة في الصيدلية مرة أخرى ..وقصصت عليه كل شئ

بقيت معه في صيف ٢٠٠٢ وغيّرت السيرة الذاتية وأضفت بها عملي بالشركة وصيدلية د. محمد في خانة الخبرة

ومرت الأيام وأنا في حالة من الرضا وكنت قد أخبرت أحد المعارف إنني أود أن أسافر إلى المملكة العربية السعودية ...وحصلت علي عقد عمل لإحدى شركات المقاولات التجارية

وانتهيت من كامل أوراقي وحصلت على التأشيرة وأجلت السفر إلى ما بعد رمضان وعيد الفطر

واعتذرت لد. محمد عن عدم العمل في رمضان للتفرغ للعبادة وحتى أمكث مع أهلي أكبر وقت ممكن قبل السفر واستقبلت شهر رمضان المبارك ...واستقبلت روحانيات جديدة وكان شهر تمحيص للقلب وتطهير للعقل وتغيير للفكر ....

شتاء ٢٠٠٢

(عائلتي في رمضان)

ظهر شبحي أخيرا وقال:

لماذا تتوقف عن الكتابة وأعود وأتكلم معك لكي تكتب؟

أظهرت ابتسامة خافتة وقلت:

وهل ما حدث يستحق الكتابة؟ إنه صراع أجيال يا سيدي الفاضل قال الشبح:

أنت تبحث عن المثالية وهذا عيب خطير لأنك لن تجده أبدا

تساءلت باستنكار:

مثالية!! ألم يخلقنا الله عز وجل خلائف في الأرض؟ أليس من المفروض أن كل جيل يتعب من أجل الجيل الذي يليه حتى يفعل مثله ويتعب من أجل غيره ..أليست هذه أساس الدعوة إلي الله ..وأساس أي دعوة إلي الخير ...أين المثالية؟؟ إنها فجوة كبرت وتضخمت وتعمقت بين الأجيال وأصبحنا نرى بعضنا البعض على هيئة أشباح ...مثلك الآن

ضحك الشبح ثم جلس علي مقعده:

إن حلقة الوصل بين الأجيال تقتضي بأن يتبرع الجيل بدمٍ ملئ بالحب والحيوية والحماس والثقة للجيل الذي يليه

وسألت: ولماذا لم يحدث؟

قال: الحروب ..إن الإنسانية عاشت في حالة من الحروب النفسية والعصبية والاقتصادية جعلت الجميع يفكر في ذاته فقط دون الآخرين وتملكت الأنانية من الجميع

ألا تعلم أن هذا الذي حدث بين الجن والملائكة من فجوات في قوله تعالى:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ

ألم ترى ...الفرق والفجوة الشاسعة بين من يُفسد ويقتل ويدمر ومن يسبح ويعبد ...؟

قلت: نعم ..إنها سُنة الله في خلقه و للأسف ورثنا الخفوت والضعف وقلة الحيلة ...وهذا ما وصلنا إليه

قال: وهذا ما أريدك أن تكتبه ....

وأضاءت شاشة العرض من جديد

**

قبل رمضان أردت أن أسجل خُطة رمضانية لاستقبل رمضان استقبالاً روحانياً وبالفعل كنت أمسك الورقة والقلم وأكتب

وبعد ما انتهيت وجدت أن هذا الجدول لن يُنفذ أبدا ...

كنت بلا خبرة فهي المرة الأولى التي استقبل فيها رمضان بفكر روحاني

وذهبت إلى والدي لكي أستشيره ..

وجلست معه وأفهمته ما أريد

فاجأني بقوله: وليد اذهب عنّي الآن ..

قلت مندهشا: لماذا؟ أتعاني من شيء؟

قال: لا ..ولكن يكفي ما حدث منك وتريد الآن أن تسافر وتبتعد عنّا وقبل سفرك تريد أن تُصبح شيخاً ...

وبغضب أكمل حديثه: أنت أتعبتني ...

وقام من مكانه وأنا في حالة ذهول لا أفهم شيئا

وجدت أمي جالسة في صالون البيت بعد أن خرج أبي وأخرج غضبه في غلقه للباب

وقلت لها: ما الذي فعلته يا أمي؟ لماذا ثار أبي عليّ هكذا؟

وبكل الحزن المعتمل بداخلها ولكن بهدوء أجابت:

أباك دائما كان لديه طموح أن تصبح طبيبا ولكنك أفقدته هذا الحلم وذلك الأمل ومررنا بحالة نفسية عميقة الجرح وبعدها التحقت بكلية التجارة وكان عزاؤنا أن تقديرك عالي وهذا لم يشفع في أن تُصبح معيداً في الكلية و بعض التصرفات مثل التمثيل ضايقتنا جميعا وحمدنا الله عز وجل أنه أنار بصيرتك وطريقك وابتعدت عنها وبعدها عملت في الصيدلية ثم مندوب مبيعات واستقلت منها.....ماذا بك يا ولدي؟ لماذا أنت غير مستقر؟

جلست والسكون أحاط بي ومع الاندهاش العجيب الذي اعتلاني ...قلت:

أنتم السبب

ارتفعت حاجبا والدتي من التعجب وتساءلت في يأس:

نحن؟؟

قلت لها: نعم ...لماذا انتم بعيدون عنّا؟

لماذا لا يوجد لغة حوار بيننا؟

لماذا لايوجد أي حلقة وصل بين أبي وبيني وبين أخوتي؟

لماذا لا يوجد يوم عائلي نجتمع فيه سويا؟

لماذا لا تعرفون عنّي شيئا؟

إنني بالكاد أري أخي الذي التحق بكلية العلاج الطبيعي التي بالقاهرة وأخي الأصغر في حالة ضياع مبكر ما بين اللعب واللهو...أين نحن؟؟ غريب أمركم ..أنتم تحلمون ونريد أن ننفذ أحلامكم بدون أن نفهم ...ونخرج جيلا بلا وعي فقط لأنكم الكبار ونحن الصغار ...لماذا لا نشارككم في الحياة ..أنا لا اعلم راتبك أنتِ أو راتب والدي ..أنا لا علم لي بمصاريف البيت ..ولا كيف تديرون شئون المنزل ...لماذا؟ كان من الطبيعي أن أتخبط في طريقي ولكن أين أنتم من هذا التخبط .....

كانت أمي تستمع إليّ وكأنها تقول في نفسها ..

متى كبرت يا وليد؟

وبعد أن هدأت دقات قلبي وانتظمت أنفاسي أكملت:

إن الله إذا أراد أمراً يَسّر له أسبابه ..ولعل كل ما حدث لي خيرا لا أعلمه ..ولكن الفجوة التي بيني وبينكم عميقة ...وبها الكثير من قلة الإيمان والتوكل علي الله

قلت عبارتي الأخيرة وقمت مسرعاً إلى خارج المنزل ولم أكن أنتظر أي رد من والدتي ....فكانت في حالة تفكير ..

**

وجاء رمضان وهممت أن أستقبله كما أردت وكانت المرة الأولى التي أفتح فيها المصحف الشريف بانتظام ..وانتظمت في الصلوات الخمس في المسجد وأيضا كانت هي المرة الأولى التي أصلي فيها صلاة التراويح وصلاة القيام

... وتعرفت في المسجد علي الشيخ إبراهيم

الشيخ إبراهيم ليس شيخاً أو خرّيج جامعة الأزهر ..إنما هو معلم لغة عربية بالمرحلة الثانوية ولكنه سافر إلى المملكة العربية السعودية خمسة عشر عاما وهناك طوّر من ذاته وتعلم الكثير من الأمور الفقهية والدعوية وكان صوته جيد جدا في قراءة القرآن الكريم ولبق في إلقاء الدروس الدينية وأعطاه الله القبول فكان رواد المسجد يأتون إليه خصوصا فأصبح الأستاذ إبراهيم هو الشيخ إبراهيم نجم صلاة التراويح والدروس الدينية

بعد خمسة عشر يوما من رمضان اقتربت كثيرا من الشيخ إبراهيم حتى أنني كنت أنتظره بعد صلاة التراويح ونخرج سويا ونتناقش في أمور كثيرة ومنها أحوال الناس مع رمضان ولأنني جديد العهد فكانت أسئلتي قديمة ولكن في حاجة إلي إجابة

وذات مرة سألته:

لماذا كان هناك ازدحام شديد في أول رمضان وبعد ذلك هدأ كثيرا حتى أننا في منتصف الشهر ...العدد أصبح ثابتاً؟

ابتسم في هدوء وقال: لأن الناس يدخلون في رمضان غصب عنهم بحكم العادة الجماعية

سكت لعدم الفهم وأردته أن يكمل

فقال:

بحكم العادة الجماعية يعني أن هناك أمور تحدث في وقت واحد ويشارك فيها الجميع مثل الإفطار والسحور وصلاة التراويح فهي غير موجودة طوال العام لذلك تجدهم يأتون وكأنهم مربوطين بقيد العادة ..وبشكل جماعي وسترى ليلة الحادي والعشرين ازدحام ...وليلة السابع والعشرين والتي يعتقد الكثيرون أنها ليلة القدر ازدحاما غير طبيعيا والعجيب أن أول صلاة صبح في أول أيام العيد لن تجد إلا من اعتادوا صلاة الصبح في جماعة والأعجب أنك ستجد الآلاف بالساحات لصلاة العيد ..مع إن صلاة الصبح فرض عين وأن صلاة العيد فرض كفاية أي الفرض الذي إذا أدته فئة (كافية لصحته) من المسلمين سقط عن الباقي

قلت: إن أمرنا عجيب كذلك أمر أبي وأمي .. وقصصت عليه ما حدث وما تم من آخر حوار مع والدتي

فقال الشيخ إبراهيم: لست وحدك فمعظم البيوت أصبحت كذلك ..الأب يظل يبحث عن توفير حياة كريمة لأولاده طوال حياته وينسى نفسه وينسى عائلته وينسي كل شئ ..فهو دائم الحساب بالورقة والقلم وأنت تقول أنهم موظفين في الحكومة...فلهم العذر ...أنا ابتعدت فترة طويلة عن عائلتي لنفس الغرض ولكن كانت هناك حلقات وصل بيني وبينهم أعلم دائما إنه عندما تتُغير حياة الإنسان مادياً واقتصاديا يتغير تفكيره وطريقته وأسلوب حياته

التمس لهم العذر فهما كانا علي أمل أن تكون طبيبا ولعل فرصة أخيك في كلية العلاج الطبيعي أعطت لهم نوع من الثقة أنهم علي الطريق الصحيح

عُدت إلي البيت ووجدت أبي وأمي في حجرة الصالون ...وبعد أن ألقيت السلام عليهما ...ألقيت بنفسي في حضنهما باكيا متألما نادما علي كل ما سببته لهما من معاناة. وجلست معهم وكأنني أفتح صفحة جديدة معهما

وتحدثنا كثيرا في أمر السفر للمملكة ودعوا لي بالتوفيق وقبل أن أخرج من الحجرة أخبرني أبي أنه سيصلي معي صلاة التراويح وصلاة القيام بالمسجد ابتداءا من غدا ...الحادي والعشرون من رمضان

دمعت عيني من الفرحة وعدت في أحضانه مرة أخرى وكأنني أستعيد والدي الذي غاب عنّي منذ سنوات ...

****

كان الشيخ إبراهيم مُحقا في كل كلامه مما شجعني على مزيد من الأسئلة وسألت:

كيف نثبت بعد رمضان؟

فقال: أن تحافظ علي ما حصلت عليه من رمضان وتزيد في الطاعات المختلفة ..تعلم تجويد القرآن مثلا ..انضم لجمعية خيرية ...كن إيجابيا في حياتك

ولا تجعل رمضان في حياتك ككثير من الناس موسم وانتهى بل اجعله كبداية.

لأنني أول مرة أسمع بكلمة (موسم)

سألته: وكيف يكون رمضان هذا الشهر الفضيل موسم؟

قال: بعض الناس يقرأون القرآن الكريم في رمضان فقط وقد يكون هناك سباق في قراءة اكبر عدد من الأجزاء و هناك من يختمون القراءة عدة مرات..هذا لا بأس به ..جعله الله في ميزان حسناتهم ...ولكن ماذا بعد رمضان؟ أليس من الأولى أن يتدبرون القرآن ويعيشون مع الآيات ولو سورة واحدة مثل سورة البقرة ...ورمضان المقبل يعيشون مع سورة المائدة وهكذا ...يعيشون طوال العام مع أحكام سورة معينه ويفهمون تفسيرها وخواطرها ويفتح الله علي الجميع ...

بل ويزيدون في قراءة الأحاديث النبوية الشريفة ومعرفة قصص القرآن وقصص الأنبياء والصحابة وهكذا ..كل شهر رمضان يكون وقودا صالحا لزيادة الخير طوال العام حتى نستقبل رمضانا آخر ..

استوعبت كلامه جيدا وفهمت الكثير من دروسه التي كان يلقيها وتمر الأيام وحان موعد السفر ..والقلب يخطو خطوة للأمام ..ويرجع عشر خطوات للخلف ...فليس لي حل إلا السفر والابتعاد عن الأهل والأصدقاء وصحبة المسجد

كان زادي هو الطاقة الروحية التي شحنتها في رمضان والراحة النفسية التي حدثت مع عائلتي ....

أغلقت حقائبي...وودعت أمي ببكاء حار كان لإخوتي نصيب منه

وأثناء السفر تكلمنا كثيرا أنا ووالدي وأوصاني أن أهتم بنفسي وأن لا أجادل أحدا في غربتي ...وأن أكون في حالي وأن ألتزم بقوانين المملكة

شكرته علي نصيحته ....

ووصلنا إلى المطار ومضت نصف ساعة على الإجراءات ثم أقلعت الطائرة ....

وودت أن تقلع بدوني وانطلقت إلى الفضاء وتركت ذكرياتي في مصر ومراحل صعود وهبوط ....

ووصلت بسلامة الله إلي المملكة العربية السعودية ...

وكان هاني في انتظاري

هاني زميل لي في الشركة التي سوف أعمل بها ..وهو يعمل محاسبا أيضا....

وبعد الترحاب ذهبنا إلي المنزل الذي سوف أعيش فيه ..

. وكانت هذه السفرية بداية لإنسان آخر ....

وأتى ٢٠٠٣

وكانت الغربة استكمالا لمرحلة الرؤى...

صيف ٢٠٠٣

(الغُربة..جامعة الحياة)

" إن الغربة في بعض الأحيان تشبه العزلة الإجبارية وأحيانا تُشبه الالتحاق بالقوات المسلحة ..فأنت مسئول عن ذاتك فقط ومُحدد بعدة أوامر ونواهي ومواعيد عمل رسمية ولابد من النظام والانتظام بها ...فالحرية محدودة على كل حال ..والعلاقات بين المغتربين قد تكون سطحية وقد تكون مصلحة شخصية فلا مجال للتعمق في نفوس الآخرين أكثر من اللازم حتى لا تخسرهم "

صفق الشبح وعلى وجهه علامة السخرية وتوقفت عن الكتابة وقال:

يا لها من عبارة مختصرة لسنوات الغربة ..إنه درس مهم أنت تعلمت منه ..ولكن بعد فوات الأوان ..كان عليك عدم التدخل في شئون الآخرين وإن لكل مغترب حياته الخاصة وأن الغُربة تعطي نوعاً من عدم الأمان للمغترب فيحتاط من كل شئ ..وأفعالك كانت جرساً مزعجاً وليست جرس إنذار ..لقد حاولت الإصلاح فأتلفت كل شئ ..لقد كنت مثالاً للداعي إلى هوى النفس وليس إلى الله .. وأن الطاقة الروحية التي تم شحنها في رمضان ٢٠٠٢ أفرغت بطريقة عشوائية ...

تلوت عليه الآية:

إِنْ أُرِيدُ إِلاّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِيَ إِلاّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ

قال الضمير: وهل أصلحت؟

فأمسكت بقلمي لأعلم ....هل أصلحت أم ...لا

**

كانت الشقة مكونة من ثلاث غُرف ..لكل مغترب منّا غُرفة مستقلة ..والشقة متوسطة المساحة تحتوي على صالة صغيرة كافية لأن نجلس بها لتناول غذائنا وعشاءنا ...والمطبخ لا يُستخدم للطهي إنما للغسيل ...فحياة العزوبية وقلة الوقت أعطت لنا كسلاً في الطهي وأن شراء الوجبات الجاهزة ..أسهل ...لا يوجد لدينا تلفاز ولا جهاز حاسب آلي ..

غرفتي كانت مفروشة بسجاد وبها سرير ومرتبة ووسادة إسفنجية..وجهاز تكييف الهواء ...وخزانة ملابس بلاستيكية سهلة التركيب ...

مضت ستة أشهر على سفري ..وعرفت فيها جيراني في الحجرات المجاورة ...

هاني وسعيد ...محاسبان في نفس الشركة والتي أعطت لنا هذا السكن للإقامة

من هما؟

هاني ..شاب في السابعة والعشرين من العمر وأعزب مثلي ويعمل بالشركة منذ عامين وهو إنسان عادي مرح وكثير الدخان ..وغير ملتزم بالشعائر الدينية مثل الصلاة في المسجد أو قراءة ورد يومي للقرآن ..كثير السهر خارج البيت ...ولكنه في العمل مجتهد ومن إحدى صفاته أنه عصبي نوعا ما ...رغم مرحه !

سعيد ..أكبر منا جميعا ويعمل هنا منذ أربعة أعوام ومتزوج ولديه طفلين ..فقد تزوج مبكرا بعد تخرجه من الكلية من ابنة خاله...ولأن والده متوفى كان هذا السبب في زواجه المبكر وسعيه للرزق بأطفال حتى لا يشعر بنقص في الأبوّة التي حُرم منها ... كنت أراه مرحاً ويحب

الضحك وأيضا أجده كثير الاضطراب والقلق ... كان يحب الإلتزام الديني إذا شجعه أحد على ذلك ..وكان يُخفي في عينيه سرا لم نعرفه إلا لاحقا

**

اليوم في الغربة كالآتي

يومنا يبدأ من الثامنة صباحا نستيقظ ونعد أنفسنا ويجتمع ثلاثتنا ونتوجه إلى الشركة قبل الساعة التاسعة ..وينتهي الدوام الأول الساعة الثانية عشر ...نذهب إلى المطعم ونشتري وجبة الغذاء ...وبعد العودة إلى المنزل نتناول الغذاء وننام القيلولة ونستيقظ قبل صلاة العصر..وأذهب للصلاة في المسجد المجاور ....ثم نتوجه إلى العمل وننتهي منه الساعة العاشرة مساءا...وبعدها نتوجه إلى أقرب سوبر ماركت لشراء وجبة العشاء ونعود للمنزل

كان العمل قريب من المنزل لذلك لم نحتاج إلى سيارة... وبعد وجبة العشاء ...نجلس في أي غرفة نتحدث فيها عن حياتنا وعن ماضينا وعن كل شيء وفي تمام الساعة الواحدة صباحا نذهب إلي السرير ولكن النوم يهرب منا أحيانا ..وكنت أستيقظ لصلاة الصبح في المسجد وأعود أنام مرة أخرى ..وهكذا ...

في هذه المدة أطلت لحيتي ولكنني لم أهملها وتوسمت في نفسي دور (الداعية إلي الله) وتكلمت كثيرا مع هاني وسعيد حول أهمية الصلاة في المسجد

وكان سعيد يستمع إلي جيدا وكان يذهب معي للمسجد في بعض الصلوات وهي الظهر والمغرب والعشاء ...أما الفجر والعصر ..كان نائما ...وهاني أيضا...

وذات ليلة ..كنت عصبي المزاج فيها من الغربة والعمل الكثير واجتمعنا كالعادة ووجهت إليهم الدعوة للصلاة في المسجد مرة أخرى...وحدث نقاشا حادا ووجهت لهم تهمة بالتقصير

فقال هاني: يا أستاذ وليد أنت تدعو فقط وليس عليك اتهامنا بأي تقصير أو تحكم علينا ...من أنت كي تحاسبنا؟؟

حاول سعيد أن يُهدأ هاني ويفهمه أنني قلت ذلك خوفا عليهم ولم أتهمهم بشيء وأن بيننا الآن عيش وملح وقال ذلك من العشم

وكأن هاني لم يستمع لأي كلمه قيلت من سعيد إليه ووجه حديثه إليه وقال:

وأنت يا أستاذ سعيد لماذا لا تصلي الصبح والعصر ...أنت تحب النوم ...عهدت علبك ذلك قبل حضور وليد ...

أصبح الجو المحيط مشحونا بسببي حتى قال سعيد:

عفوا ..أنا لا أحب النوم ..ولكنني مريض بمرض (الصرع) وأتناول عقار له ..والأطباء نصحوني بأن النوم مفيد وضروري ولابد منه حتى لا تأتي)نوبة الصرع) ..من قلة النوم والراحة

وسُقط في يدي لهذه المفاجأة الصاروخية التي دوت علي رؤوسنا والتمسنا له العذر...وتفرقنا

عُدت إلي غرفتي وانفردت بنفسي ..وفكرت في الذي حدث ... لماذا كنت القاضي والجلّاد؟

ولماذا كانت طريقتي هكذا في الدعوة إلى الصلاة بالمسجد؟

لماذا جعلت سعيد يُفشي سراً خاصاً ..؟

لقد جلدت الشباب بسوط لساني الطويل

هذه ليست الرحمة المطلوبة في الدعوة

إنه هوي النفس لكي أتفاخر بما فعلته

**

كانت الأيام تمر رتيبة وبملل وعلاقتي بصديقي هاني أصبحت عادية خالية من النصائح وكذلك سعيد

وفي أواخر ٢٠٠٣ حدث موقفا بيني وبين سعيد فقد دعوته لقراءة القرآن في غرفتي ....وبدأنا في القراءة

إذ أجده يضحك حتى كاد أن يسقط علي ظهره

غضبت من رد فعله وسألت بغضب: لماذا تضحك؟

نحن نقرأ القرآن الكريم ..احترم هذا الأمر يا أخي

قال سعيد:

إنك تقرا القرآن مثل قراءة الجرائد وبدون تشكيل وبدون تجويد

امتقع وجهي لهذه الحقيقة ....ولكنني ليس لدي الوقت للتعلم ولا أعلم ماذا أفعل؟

تمر الأيام وأنا في حالة مزاجية غير معتدلة..

وقدرا وأثناء انتظاري لوجبة الغذاء في حدي المطاعم وجدت برنامج تعليم تجويد القرآن الكريم في احدي القنوات الفضائية في التلفاز وموعده بعد الظهر

سألت عن شرائط لهذا البرنامج ولم أجد ...

فكرت في فكرة كبيرة نوعا ما

اشتريت تلفاز وطبق هوائي ووضعته في غرفتي ...

واشتريت جهاز مسجل وشرائط

وبدأت أسجل البرنامج على الشريط واستمع إليه واكرر القواعد والمبادئ التي تعلمتها

وبصوتي أسجل ما تعلمته علي شريط المسجل وأستمع إليه وأراجع

بقيت علي هذا الحال حتى أوائل ٢٠٠٤

تعبت كثيرا

ودعوت سعيد مرة أخري ...وتلوت عليه القرآن الكريم بالتجويد الذي اجتهدت فيه

وبعد أن استمع إليّ قال::

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلي الله عليه وسلم:

)مالْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ)

إنني لم أقصد السخرية منك ...ولكن يبدو أنك أخذت الأمر بجدية فهنيئا لك الأجر

كنت فرح جدا بهذا الحديث الخارج من القلب ...

وشجعني على متابعة المزيد من البرامج الدينية

وتوالت الأيام وأنا في حالة صفاء نفسي

**

سافر سعيد في أجازة إلى مصر وبعد شهرين عاد

ولكنه عاد بوجه أكثر حزنا واضطرابا..

وبدأنا نسمع صياحه في الغرفة

وهو يصرخ:

لا لا لا لا

كنا نركض من غرفنا إلى غرفته وقلوبنا مجمدة من الخوف ونطرق على الباب بقوة لكي يفتح

وفتح لنا وعيناه مجهدة وبها احمرار من قلة النوم

وفجاه تشنج وبحركات عصبية وقع على الأرض وانتابته) نوبة الصرع)

بعد أن فاق من نوبته سألته إن كان قد أخذ الدواء

فأجاب بالنفي وقمت بالبحث له عنه وأخذ عقاره ونام

ولم نوقظه إلا في اليوم الثاني ...وقدمنا ورقة أجازة لأنه مريض وعدنا إلى المنزل وسألناه لماذا تغير بعد الأجازة

قال بصوت خافت وحزين:

إنني مفتقد لأولادي ..ولا أطيق الغياب عنهم أكثر من ذلك ...وأنا والحمد لله لدينا شقه تمليك وزوجتي تعمل وسأحاول البحث عن عمل هناك في مصر ...لا أستطيع أن أتحمل هذا البُعد إنني صاحب مرض ...هل تعلمون أنني لم أتناول الدواء هناك وأنا بين أهلي ..؟

سأقدم استقالتي وأعود إلى وطني ....

حاولنا تهدئته وقلنا له استرح عدة أيام وأصبر عدة أشهر وبعد ذلك إتخذ قرارك ..لأنك في حالة ضعف الآن ..ومن الصعب أن تفكر بحكمة وتركناه .....

ويبدو أن هاني قد تأثر لما سمع ولعن الغربة بما فيها

وعدت إلى غرفتي وتذكرت أهلي ...صحيح أنني لم أنساهم ...ولكنني فكرت في المستقبل ....وخصوصا أنه قد مرتّ سنة ونصف بعيدا عنهم وخفت أن لا ألقاهم مرة أخرى

وهممت بطلب أجازة بعد أن تركنا سعيد..

وبالفعل في صيف ٢٠٠٤ عُدت إلى مصر لقضاء ثلاثة أشهر مع أهلي وأصدقائي ...وتوليت مهمة جديدة في هذه الأجازة وهي مهمة البحث عن عروسة

****

كنت تظن أن الأمر هيّن أليس كذلك؟؟

هكذا سأل الضمير اليقظ

أجبت:: كنت أظنها مسألة في غاية السهولة ...ولكن اتضح أن البحث عن عروسة مناسبة كمن يبحث عن وظيفة مرموقة

ضحك الشبح وقال: إنها الفتنة..

أومأت برأسي موافقا ...وارتحت قليلا وجلست أفكر .....